كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

أعلام الفن القصصى

● هنرى توماس و دانالى توماس ● عثمان نويه

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينه السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٣٦ ـ محرم ١٣٩٩ ـ ديسمبر ١٩٧٨

No. 336 — December 1978

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا · فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢ر٥ جك ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية · فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب ·

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

أعلام الفن القصصي

●

تأليف
هنري توماس و دانالي توماس

●

ترجمه
عثمان نويه

راجعه
محمد بدران

●

دار الهلال

الجزء الأول

المؤلفان

١ ـ هنرى توماس ودانالى توماس اسمان مستعاران للكاتبين الأمريكيين دكتور هنرى توماس شنتكيند (Dr. Henry Thomas Schnitlkind) ودانا أرنولد شنتكيند (Dana Arnold Schnitlkind)

٢ ـ ولد هنرى توماس شنتكيند سنة ١٨٨٨ ، وولدت دانا ارنولد شنتكيند سنة ١٩١٨

٣ ـ رغم ضخامة انتاج الكاتبين وسعة انتشاره ، ووفرة ما نشر من تعقيبات عليه ، فقد لزم الناشرون والمعقبون الصمت عن سيرة المؤلفين ولعل ذلك كان احتراما لرغبتهما ، لأنهما فيما يبدو يؤثران أن يقرأ الناس لهما لا عنهما .

٤ ـ كان هنرى توماس تلميذا للفيلسوف جورج سنتيانا فى جامعة هارفارد وقد ألف وحده (تيسير الرياضة) و (تيسير العلم) .

٥ ـ كذلك انفردت دانا أرنولد شنتكيند بتأليف (المجاهدون فى سبيل الله) .

٦ ـ اشترك الكاتبان فى تأليف مجموعة شائقة من كتب السير ، قدر لها ذيوع فريد فى كافة أنحاء العالم

وترجمت الى مختلف اللغـــات ، وهى : أعلام الفن القصصي ، أعلام الفلسفة الغربية ، القادة الدينيون ، أفذاذ العلم ، مشاهير الحكام ، عظماء الرجال ، أعلام الموسيقيين ، فحول الشعراء ، أقطاب النقش ، شهيرات النساء . الخ .

٧ ـ تمتاز هـذه السير بالحياة والحركة والتشويق مع الدقة العلمية . وهكذا وفقت الى الجمع بين صدق العلم ورواء الفن .

« المترجم »

مقـــدمة

اجتاز فن كتابة التراجم كما اجتاز غيره من الفنون تطورات كثيرة . وتعددت مذاهبه كما تعددت مذاهب الفنون ، ومذاهب الأدب بنوع خاص .

فقد مضى حين من الدهر كانت فيه سـير القدامى لا تتناول الا بالتمجيد والاكبار، حتى ليخيل الى القارىء ان أصحاب السير انصاف آلهه ، لا سبيل الى اللحاق بغبارهم ، أو احراز بعض ما أحرزوا من علم أو فن .

ولسنا ننكر ان هذا التقديس الذى لم يكن له مبرر فى غالب الأحيان ، قد صـدر الى حد ما عن دوافع نبيلة ، وتقاليد كريمة ، منها التنزه عن نبش قبـور الموتى ، وعدم التعرض لذكراهم بما يسوءهم ، بعد اذ طواهم الموت ، وصاروا بخيرهم وشرهم الى حيث يرثى لهم الأحياء الذين كانوا يجدون عليهم ويحقدون ، كمـا ان هذا التقديس يرجع كذلك الى حد ما الى ذلـك الجلال والوقار الذى يسبغه الموت وبعد الانسان فى الزمان.

على ان الناس حين شب ادراكهم عن الطوق ، من أثر ما استحدث من علم ومعرفة ، قد تغير رأيهم فى علوم القدامى ومعارفهم . واستتبع ذلك تغيرا فى النظر الى أشخاصهم وأسلوب تناول سيرهم .

وكذلك رأينـا بعض كتاب السير فى أواخر القرن

الماضى (١) يجردون الأعلام القدامى مما أضفى عليهم من جلال جعلهم أقرب الى الآلهة ، وأبعد عن طبيعة البشر، ويحاولون تصويرهم تصويرا واقعيا ، أو قل تصويرا بشريا لا تصويرا أسطوريا .

وكان هذا يرجع الى ما كشف تقدم العلم من أخطاء القدامى من جهة ، والى ما استحدث فى علم النفس خاصة من نظريات التحليل النفسى من جهة أخرى .

ومن أسف أن هذا الاتجاه قد شابه ما يشوب كل انتقاض كامل على القديم من مبالغة واسراف . فمزق الأقدمون اربا ، لأن تمجيدهم قد أدى الى تقديس نظرياتهم وعدم تطورها ، مما عاق تقدم العالم قرونا طويلة ، ويصدق هذا بنوع خاص على تقديس ارسطو وأثره فى تعويق الفكر عن التقدم ، بحيث وصف بعض كبار الكتاب ارسطو بأنه أعظم كارثة حلت بالعالم .

على أن « الحكمة ليست كلها جديدة ، ولا الحماقة كلها قديمة » كما يقول برتراند رسل . والمبالغة فى التعييب، كالمبالغة فى التمجيد أمر تجفوه روح العلم الصحيح .

والطريق السوى هو أن تطبق مكتشفات علم النفس، وبخاصة التحليل النفسى ، فى دراسة السير ، وهذه المكتشفات فى ذاتها تنهى عن الاسراف فى المدح أو القدح لأنها تنتمى الى ميدان العلم لا الى ميدان القيم .

وثمة أمر آخر على أعظم جانب من الأهمية ، وهو انه ينبغى لنا أن نزن أصحاب السير بموازين عصورهم ، وعلى ضوء ماساد بلادهم على أيامهم من تقاليد وطرائق

---

(١) حمل لواء هذه الحركة صمويل بتلر (١٨٣٥ ـ ١٩٠٢) وتابعه فيها برنارد شو ويطلق عليها فى الأدب الانجليزى حركة التجريد من الخداع .. Debunking Movement

فى العيش وأساليب فى تناول الحياة .

فمن غير الانصاف مثلا أن نزن جاليليو بميزان عصر نيوتن أو نزن نيوتن بميزان عصر أينشتين . والا كنا جاحدين لفضل أولى السبق ، آخذين اياهم بارتفاع صرح المعرفة على يد أخلافهم ، عما كان على عهدهم ، منكرين عليهم فضل السابقين والرواد .

فالخير اذن فى التوسط بين الاسراف فى اضفاء الجلال والاسراف فى التعرية عن الجلال . وهذا ماتوخاه فى رأينا مؤلفا تلك المجموعة من السير التى بين يديك. ففى كل سيرة تقويم نفسى للكاتب ، وان صيغ بأسلوب قصصى جذاب ، تقويم على ضوء ما اكتنف عصره من ظروف وعقائد وطرائق فى الحياة .

وانى أعتقد ان دراسة تراجم اعلام الفن القصصى لها قيمة خاصة . لأن القصاص يعيش فى داخل نفسه ويعيش فى مجتمع . فينفعل بما ينعكس عليه من حياة الجماعة ويكتب قصصه مرآة أو انعكاسا لهذا الانفعال.

ولهذا كانت سيرة القصاص تفسيرا لبعض مايكتب ، وكانت كتابته تفسيرا لبعض جوانب سيرته . وهذا التجاوب بين نفس الفنان وبين آثاره تراه جليا فى هذه المجموعة من السير .

ومما هو جدير بالذكر ان كثيرا من مكتشفات التحليل النفسى قد سبق اليها كتاب القصة الأفذاذ عن طريق تأملاتهم الفلسفية . فان الأستاذ فلوجل (١) أستاذ

---

(١) فى كتاب الانسان والاخلاق والمجتمع . تعريب عثمان نويه ـ وهو من سلسلة الالف كتاب التى تصدرها ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ..

علم التحليل النفسي بجامعة لندن سابقا يستخدم بعض المشاهد من قصص الأعلام ليعرض بها بعضا من أحدث نظرياته فى التحليل النفسي عرضا ملموسا ينبض بالحياة.

والكتاب الذى بين يديك يشتمل على سير عشرين كاتبا من أبرز كتاب القصة فى العالم منذ ميلاد فن القصة الحديثة على يد بوكاشيو فى القرن الرابع عشر حتى توماس هاردى فى القرن العشرين . والكتاب العشرون ينتمون الى مختلف الجنسيات . فمنهم الايطالى والأسبانى والانجليزى والفرنسى والأمريكى والارلندى والروسى . وقد صيغت سيرة كل كاتب فى قالب قصة قصيرة قائمة بذاتها ، تحمل فى تضاعيفها لمحات من خير كتابات صاحب السيرة . وفى ختام كل قصة قصيرة ثبت بأسماء أهم مؤلفات الكاتب ليستطيع القارىء بعد اذ عرف أعلام الفن القصصى أن يوثق صلته بآثارهم على نحو مباشر . وذلك هو الهدف النهائى لهذا الكتاب . والكتاب يعتمد فى تصوير شخصيات الأعلام على الحقائق المادية التى تؤدى الى رسم الصورة حية ناطقة، تجمع بين الطرافة والفائدة . وتتناول الكاتب من حيث هو انسان فتتعقب أخطاءه وجهاده حتى تبوأ المكانة التى سلكته فى الخالدين .

وبعد : فاذا كان بعض كتاب السير يتسترون على أخطاء الموتى تجملا ، وكان غيرهم يقتحم على الموتى قبورهم توقحا ، فان منهج هذه المجموعة من السير التأدب فى دخول قبور الموتى . ودراسة محتوياتها دراسة نزيهة القصد . ثم مغادرة القبور بعد لثم الأعظم العطرات.

محمد بدران ١٩٥٦/٣/٣٠

مقدمة المؤلفين

حينما استحال الشاعر الصفير والترسكوت قصاصا كبيرا ، خجل من عمـــله الجديد . وكتب يقول « لن انسب ويفرلى الى نفسى فلست على ثقة من انه يليق بمن كان مثلى من رجال القانون ان يكتب القصص » فقد كان القصص يعد فى أيامه فرعا منبوذا من فروع دوحة الشعر . اذ كان يمثل الابن البغيض فى الأسرة الأدبية .

كتب محرر مجلة ادنبرة يقـول « ان القصص ليس بالسمك ولا اللحم . وليست له قيمة خلقيــة ، لأنه مسرف فى التسلية والترفيه » .

أما اليوم فقد نما القصص واكتمل . لأنه أعطانا روائع تعد فى صف انبل انماط الأدب . فالقصـــــة الحديثة ، حتى فى أدنى مستوياتها ، بسـاط سحرى يحملنا على النسيان المبارك . وهى بهذا تمنحنا المناعة على تحمل صروف الزمان . وهى فى اسمى مستوياتها عرض متحرك ملموس للفكر الفلسفى . وهى فى أحسن صورها تجسيد نثرى للملحمة الشعرية القديمة . قال امرسون « كل قصـــة عظيمة مدينة لهوميروس » . « فالقصة تشبه قصائد هوميروس فى انها لا تقتصر فى

أعلى مستوياتها على ان تكون نموذجا للفلسفة كما تطبق فى الحياة بل هى كذلك صورة أدبية تنتظم كل الصور الأخرى ـ الشعر والتمثيل والتاريخ والسير والعلم والاجتماع والسياسة والمغامرة والدين والفن ـ فالقصة العظيمة اليوم ـ أو فى أى وقت آخر ـ هى صورة كاملة للانسان ، صورة تشمل جسمه وعقله وروحه ، وهى شيء آخر فضلا عن كل ماذكرنا ، هى صورة تكشف عن انسان واحد بنوع خاص ، هو القصاص نفسه . فأجود جزء من القصة هو ذلك الذى يتجلى فيه القصاص .

ولم يكن هدفنا فى روايتنا سيرة كل من القصاصين الذين يشتمل عليهم هذا الكتاب ان نقتصر على تصوير الرجل من الخارج ، كما يرى من خلال حقائق حياته ، بل ان نصور كذلك الرجل من الداخل كما يرى من خلال أفكار عقله . وقد سعدنا اذ وجدنا ان كل قصاص عظيم اذا نظر اليه من هذه الزاوية المزدوجة تراءى هو نفسه بطلا لقصة عظمى .

هنرى توماس
دانالى توماس

جيوفاني بوكاشيو

(١٣١٣ - ١٣٧٥)

- ١ -

كانوا يدعونه (جيوفاني الهادىء) لقدرته على الاحتفاظ بروح المرح والخير اذا ألمت به الخطوب . وقد تطامنت له تلك القدرة العجيبة على أن ينقل الى الناس بشاشته ومرحه . فهو ان كان فى صحبة نسوة سئمن رتابة الحياة وتشابهها جعل همه أن يرفه عنهن ويخرجهن من السأم . ولم يجد فى العالم شيئا أجلب للترفيه من قصة الغرام الجيدة . فقد لاحظ ان المرأة لا تبلغ أوج المتعة الا اذا لعبت بنار العاطفة . فان خشيت ان تحرق النار أناملها اصابت نفس المتعة تقريبا من قراءة أخبار نساء أخريات قد لعبن بهذه النيران . وكان يقول : « ان هذا الحب بالتوكيل » يكاد يبعث كل النشوة التى يبعثها الحب المباشر . ولا يعرض صاحبه لشىء من مخاطره . فالذى تفعله النسوة المغامرات تحب غير المغامرات ان يتخيلن انهن فاعلات مثله . وهكذا استطاع بوكاشيو بمحاولته تغذية خيال اخواته الأقعد عن المغامرة أن يبدع فن القصة الحديثة .

وقصة بوكاشيو أشبه بصورة مصغرة لمجالى الطبيعة الايطالية فى فتنتها وتنوعها غير المحدود . ضحكات فضية فى ليلة مقمرة ، ومروج رزينة الجمال ، وجداول

تستلقى وقد تدافعت فيها الفكاهة ، ومنعطفات على الطريق مفاجئة ، واستشراف روائع لم تخطرعلى قلب ، قلبه وزوابغ الغيرة الثائرة ، وسحب عابرة من الأسى الموقوت ، وشمس الأخوة العالمية التى وسع عناقها كل شيء . هذه هى العناصر التى يبدع منها قصصه .

وان عالمه لعالم شديد اليقظة ، يحف به مجد الشمس فى الظهيرة وأرض القرون الوسطى زاخرة بشخوص أحياء شرايينهم مليئة بالدماء ... من رجال ونساء يتحدثون عن طبع ويحبون فى اشتهاء ؛ بحيث اننا لانزال نراهم ونسمعهم ونستمتع بهم من خلال تلك القرون التى تفصل عالمهم من عالمنا. فقد كانت قصص بوكاشيو تصور الحياة فى أمانة وصدق ، حتى ليقول عنه أحد النقاد « ان الله حين خلق جيوفانى قد خلق العالم مرة ثانية » .

— ٢ —

كان جيوفانى بوكاشيو ، ابنا غير شرعى لتاجر من فلورنسا . وقد ولد فى عصردينى ، عصردانتى (١٣١٣). وماكاد يلقن صوفية الكنيسة حتى استبدل بها واقعية الحياة ، وسار متهاونا فى تعلمه بالمدرسة . فما هو الا ان تذوق الآداب القديمة تذوقا سريعا ثم تتلمذ فى عامه العاشر لباريسى من رجال الأعمال وصار بعد بضع سنوات وكيلا تجاريا متنقلا لأبيه ولكن به الى القراءة نهما وعن التجارة صدوفا ويقول أبوه شاكيا (ان الشقى الصغير ليشترى من الكتب أكثر مما يبيع من السلع) كان تلميذا بطبعه فأصاب من العلم بالأدب ما لم يصب معظم خريجى الجامعة فى عصره . ولم يقف عند توثيق

صلته بالأدب ، فقد وثقها بالحياة أيضا . فاستوت كفايته فى قرض الشعر ، وحذقه أفانين الغزل . وهام بصحبة الكتب كما هام بصحبة النساء واما تجارة بوكاشيو (فليعن بها أبى الذى يجرى فى عروقه الذهب المذاب اما عروقى أنا فيجرى فيها الدم الأحمر) .

فلما خاب أمل الوالد فى ان يجعل من ولده رجل أعمال ، قرر ان يجعل منه محاميا . فبعث به الى جامعة نابولى ، وهنالك جعل جيوفانى يجد فى اعداد نفسه لكل شىء خلا الدراسات القانونية ، وكان أبوه يمنحه فضلا من المال ، فشرع يؤلف ما بين نفسه وبين ثمار المعرفة غير المألوفة ، والثمار المحرمة منها خاصة ، وكان شباب عصره الأميل منه الى الجد ، ينقبون عن أسرار الجحيم . والمطهر والجنة . أما بوكاشيو فقد أضاف الى الأسرار الثلاثة المقدسة سرا رابعا ، وكان هذا السر عنده يفوق الأسرار جميعا فى أهميته .. هو سر الأرض لأنه يفوقها جميعا فى انسانيته . ذلك بأن دانتى ويترارك قد لفتا العالم الى الحب الروحى ، حب بياتريس ولورا ، فوجه بوكاشيو بصر قلبه الى حب مادى لماريا ، وكانت ابنة غير شرعية لملك صقلية . وكان فى عامه الثامن والعشرين حين وقع فى أسر هذا الغرام .

وقد أطلق عليها ذلك الاسم الشعرى Fiammetta ومعناه (اللهب الصغير) والقى بنفسه فى غير حذر يلتمس الدفء خلسة من نار حبها . غير انه أجزل لها المكافأة على مودتها فكتب باسمها قصة وخلدها اذ جعلها من الشخصيات الرئيسية فى العشريات (ديكاميرون Decameron) .

ومع أنه قد أخلص نفسه لهذه البقعة وهذه اللحظة فهو لايزال ابنا أمينا لعصره شديد الاهتمام بالحياة الأخرى. فكتب سيره لحياة دانتى ولكن الكتاب فشل ذلك بأن بوكاشيو كان قد أوغل فى الملهاة البشرية بحيث لم يفهم ملهاة دانتى الالهية . فان روحه لفى عمى عن اجتلاء صورة واضحة للرجل الذى حاول ان يصفه . فهو يعجب بشعر دانتى لكنه لايحفل بلاهوته . فاذا حاول ان يبعث الحياة فى دين دانتى لم يبتعث غير دخان غامض مضطرب فهو يشير الى اللاهوت ب (شعر الله) لكنه فى ريب من وجود الله فارتاب فى حقيقة شعره فجاءت (حياة دانتى) نغما جميلا فى الأدب الايطالى لكنه نغم غير متميز ، هو محاولة لتمجيد عقيدة القرون الوسطى قام بها رجل لايؤمن بها فى قرارة نفسه .

واتبع بوكاشيو (حياة دانتى) بكثير من المحاولات الأدبية الكبرى واستمر يعزف لحنا غير متميز . كان أسلوب عصره ثقيلا مصطنعا مزوقا ولكن بوكاشيو بسيط صادق غير متكلف . فان حاول التصنع كما يفعل معاصروه أصيب بالفشل .

فنثر عصره المتكلف وشعر عصره المهول كانا غريبين فى فمه الضحوك وقد كتب قصة طويلة يظهر بها علمه هى فيلوكولو Filocolo فمضت القصة تتعرج كأنها نهر طويل بطىء يتعثر بين شطآن من الطين الثقيل . فهى تخلو من الجمال خلوا تاما ذلك بأن بوكاشيو لم يكن حتى الآن قد تعلم الكتابة بالأسلوب الصادق الطبيعى الذى يستخدمه فى حديثه ، فهو يجنح الى توريط نفسه فى تلك العبارات المعقدة التى يصطنعها المتعالمون . من ذلك قوله (الناس الأولى فى فجر حياتهم

قد اعتدل شراع عقولهم للرياح السارية من المروحة الذهبية التى صنعت من ريش ولد سيثريا) حين يكون كل مايريد قوله (الشباب الذين يعشقون) وفى الفيلوكولو لايقبل المساء فى هدوء قط وانما يقبل (اذ تهدر الأبواق. وتتألق الشمس الغاربة بينا جياد أبولو المتوثبة وقد استشعرت الحر من جهادها طول النهار تدفع بجسومها الملتهبة فى أمواه المحيطات الغربية) . وأشخاص هذه القصة مخلوقات هائلة لاتكلمنا قط فى صوت طبيعى بل تصيح بنا دائما من مكبر صوت . وهم لايستطيعون ان يطلبوا جرعة ماء دون القاء خطاب طويل مزهر عن ظمئهم فلغة بوكاشيو لاتزال ثقيلة صارخة الألوان . فهو يحاكى أسلافه ممن يقلون عنه شأنا بدلا من التعبير عن ذاته الأجل شأنا . فيؤثر العبارة الأغريقية أو اللاتينية المركبة على مرادفتها الايطالية البسيطة لذا فان بوكاشيو فى قصة الفيلوكولو ، وهى التجربة الأولى الساذجة للقصة الحديثة ، يبدو عالما من الطبقة الأولى باللغات القديمة غير انه شاعر عاطفى من الطراز الثانى.

ومع ذلك فان (فيلوكولو) على ثقلها قد نجحت نجاحا ماليا . فالعالم كان مهيأ لقبول القصص وقد عزف بوكاشيو فى الأدب لحنا جديدا رضى عنه ذوق الجمهور فتشجع لرواج قصته النثرية . وهو يحاول الآن أن يكتب قصة شعرية فيؤلف كتاب تسسيد وهو ملحمة منظومة على غرار الياذة فرجيل وكان حظه من النجاح والخلو من الحياة مثل حظ (فيلوكولو) فهو كتاب عن الأبطال كتبه رجل لايؤمن بالبطولة فجاءت تسيد صورة رائعة ولكنها ميتة ، هى حفل قديم مزخرف قد استحال الى حجر . فليس فيه حركة ولا حياة .. انها تشمل كل العناصر الجميلة التى تتطلبها القصيدة ، عدا الشعر،

وهى تنطوى على مقـــدرة أدبيـــة ولكن تعوزها شرارة الحماسة .

على أن بوكاشيو تعلم تدريجا كيف يكتب بقــلمه كما يكتب بعقله فيأتى كتابه التالى فيلوستراتو أقرب نوعا ما الى حياة عصره .

ويروى بوكاشيو فى هذا الـكتاب قصة كرسيــد وترويلس فيقدم الينا فيه لأول مرة قصـــة شخصين يحملان اسمين أجنبيين وعقلين عصريين . كان حبهما عاطفة أرضية صحيحة ، خالية من كل المبالغات البيانية والصوفية العليلة التى حجرت مشاعر أشخاص بوكاشيو الأولى . لقد عاد بوكاشيو الآن من جولاته فى عالم الادب وأقام يدرس الحياة. فينقل بصره من التماثيل الرخامية الى أشخاص أحياء يعرفهم أتم معرفة ويحبهم أشـــد حب . فيهتدى بوكاشيو الى نفسه آخر الأمر بعـــد تعييث لبث عدة سنين . فنبدأ هنا نرى لمحات من المتهكم المرح ، الفيلسوف الطيب الذى تعلم كيف يضحك مع الناس بدلا من أن يضحك منهم . انه يصيبهم بفكاهته اللاذعة ثم يخشى أن يكون قد آذاهم فيربت عليهم بفكاهته الوادعة .

فاذا انتقلنـــا الى تقدير عبقرية بوكاشيو شعرنا فى فيلوستراتو اننا نقترب من هذه العبقرية ، اذ نرى فيها قليلا من الأوراق المبعثرة ســابحة نحونا من الخمائل السحرية لعبقريته التى سنجتليها فيما بعد . ففيهـــا نسمع صوت بوكاشيو الحقيقى الذى سيخلق العشريات Decameron فيحدثنا عن الحب فيقول (ما اعجب هؤلاء البخلاء البائسين الذين ينعون على العشاق والذين يصرون على ان كسب المال خير من كسب الحب) .

فلندعهم يسألون أنفسهم هل مدخرات العمر كله قد جلبت من المتعة مثل ما تجلب لحظة واحـــدة من لحظات الحب . سيجيبون ان نعم ولن يكونوا صادقين ولسوف يضحكون من الحب ويدعونه (جنونا اليما) لـكنهم اذ يجمعون أموالهم يســـمحون لروح السرور الحقة ان تفلت من ايديهم . ان مالهم قد يضيع فى ساعة ولـكن الحب اذا ذقته مرة فقـد جلب لك المتعة الى الأبد ألا فليتعس الله البخلاء وليرد على العشـــاق ما أصابوا من مال) .

ان بوكاشـــيو العالم يتحول تدريجا الى جيـــوفانى الشاعر فهو يتأهب للتخلص من نسبتـــه لأبولو ، اله المعرفة ، ليعتنق دين فينوس الهة الحب ، وهو فى كتابه التالى Amorosa Visione يخطو خطوة أخرى فى هذا الاتجاه ومع ان هـــذا الـكتاب قد جاء من وحى قصيدة دانتى فهو مع ذلك ليس (بالصـــورة المجردة لسماء الـكاتب الخيالية) بل هو على نقيض ذلك صورة مادية جدا لأرض واقعية . فدانتى قد تسامى عن اللحم الى الروح . وأما بوكاشيو فينزل من الروح الى اللحم . وفى هذا التنزل يقل تســـاميه المبهم الغامض وتزيد انسانيته الواعية البصيرة فنساء بوكاشـــيو الدنيويات أمتع من ملائك فردوس دانتى لأنهن أقل كمالا . واذا كانت ملائك دانتي يثرن اعجابنا فان نســـاء بوكاشيو يثرن عطفنا فما أشبههن بنا لذا فما أحبهن الينا .

ان بوكاشيو يبشر بانجيل جديد .. انجيل المحبـــة الانسانية « فالحب لم يعد خطيئة بل صار متعة » . ويتعلم بوكاشيو كيف يصور الأنثى الخالدة فى كل سحرها الجامح المخطىء ويبدد هالة الفضل والدماثة التى كانت

تحوط نساء جيله ، وهو لايظهرنا على ما تنبس به شفاههن من عبارات بريئة فحسب بل ويظهـــرنا كذلك على ما تهجس به عقولهن من خواطـــر أقل براءة . فنحن فى القصيدة التالية نرى أول صورة أمينة لامرأة ايطالية فى القرن الرابع عشر :

بجانب بئر صافية ، وسط حقل صفير .

زاخر بالعشب الأخضر والأزهار من شتى الألوان ، جلست ثلاث فتيات يروين (كما علمت) قصص غرامهن .

وقد هصرت كل منهن فننا ليحجب وجهها الحبيب ، واسبغ الورق الاخضر ظله على الشعر الذهبى .

وامتزج اللونان البهيجان .. وقد تخلله فى رفق نسيم وادع طالما أنار وطالما أخبى . وبعد هنيهة قالت احداهن (لقد سمعتها) ترى ! لو حدث قبل أن تدق الساعة التالية ان حضر عشاقنا الى هنا اليوم .

اتظنان اننا ينبغى ان نهرب أو نخاف ؟ .. فأجابتها الاخريان :

من مثل هذا الحظ (الباهر) . تكون الفتاة حمقى لو انها فرت .

هذا الاعتراف الصريح بعاطفة طبيعية . يمثل النغم الأول فى السيمفونية الواقعية ...

ويعزف بوكاشيو فى Corbaccio نغمة أخرى أوضح من تلك فى صراحتها الواقعية ، لقد خدعت الشاعر فى حبه أرملة طروب . فكان أول ما خطـــر له ان يزهق روحه بخنجره . ولكن حبه الشديد للحياة يحول بينه وبين ذلك فيقرر خطة أحكم هى أن يقتـــل معشوقته

الخائنة بسيوف تهكمه .

وفكرة القصة ساذجة الى حد ما . ولكن التهكم فيها جيد فان بوكاشيو يقترب شيئا فشيئا من روح العشريات Decameron ».

- ٣ -

ويهتدى بوكاشيو الى نفسه اخيرا فى الديكاميرون . انه هنا فى ميدانه الحق وعالم الديكاميرون هو عالمه . وجاءت شخوص هذه القصص كشخوص الحياة الواقعة فقد كفوا عن تحليل أنفسهم واخذوا يمتعون انفسهم فهم لايفكرون تفكيرا حرا وحسب ، بل هم كذلك يتصرفون تصرفا حرا . فينظرون الى الحياة نظرة تستوى فيها الصراحة والطيش . واذ كانوا لاينتحلون ثوب أصحاب الرسالات الاصلاحية ، فقد قنعوا من العالم باغماض عيونهم عن شروره . وهم لايؤمنون الا بمبدأ واحد (عش ودع غيرك يعش) .

واذا كانوا راغبين عن التضحية بأنفسهم من أجل الآخرين فهم كذلك راغبون عن التضحية بغيرهم من أجل أنفسهم . لقد تخففوا من تعصب العصر الوسيط وتخففوا معه من عدم التسامح الذى كان طابع هذا العصر . فهم لايصدرون فى حركاتهم عن أى روح صليبية ، ولا يبتغون ان يحيلوا أحدا الى دينهم أو أن يتحولوا هم الى دين غيرهم وهم لايكترثون بالماضى أو القابل سواء بسواء . وهم على استعداد لأن يشتروا متعة اليوم بذكريات الأمس ووعود الغد . وتصور احدى قصصهم المحبوبة موقفهم ذاك احسن تصوير .

تقول هذه القصة : ان الفيلسوف (ديوجين) حين لقى الاسكندر حاول لومه على أطماعه الحمقاء فسأله : بعد ان تغزو أثينا .. ماذا تنوى ان تفعل ؟ .

أغزو فارس .

وبعد فارس ؟

أغزو مصر .

وبعد مصر ؟

أغزو العالم .

وبعد غزو العالم ؟

أستريح واستمتع .

فسأله : وماذا يمنعك أن تستريح وتستمتع الآن ؟

وكل أشخاص الديكاميرون مصممون على أن يستريحوا ويستمتعوا الآن وليس لديهم احساس بالمسئولية العامة فحين انتشر الطاعون فى فلورنسا (١٣٤٨) لم يشعروا بوجوب البقاء فى مدينتهم ومساعدة الضحايا . بل وجدوا الأمتع لهم والأسلم أن ينتقلوا الى الريف حيث يستطيعون قضاء أيامهم فى الطعام والشراب والغزل ورواية الحكايات اللاذعة .

(لست أحفل بغير لحظات الحياة الصافية) .

تلك الحياة السطحية التى لا تبالى بالعواقب الدنيوية والتى لايزعج صفاءها أى عمق فى الاخلاص أو ايغال فى البغض . هذا النوع من الحياة هو ما تجده مصورا تصويرا ممتعا فى (الديكاميرون) لجيوفانى الهادىء . لقد لبث العالم قرونا عدة يغمره الاحساس بالخطيئة الأصلية والخوف من العقاب المقبل . لقد نسى الناس قدرة

الضحك على التفريج عن النفس فعلمهم بوكاشيو كيف يضحكون .

والواقع ان قصصه فى الديكاميرون قد رويت من قبل، فهى ليست من خلق بوكاشيو . بل هى أشبه بقصص (ألف ليلة) فى انها نتاج اقطار كثيرة ، وعقول كثيرة . ولكن بوكاشيو قد أخذها من وضعها الساذج الأمى فأجاد تشكيلها وبث فيها الحياة . وليست الديكاميرون مجموعة لا نظام لها من قصص لا رابطة بينها . بل هى وحدة محكمة أقيمت على نظام من المنطق . ويحوى الكتاب عشرة أشخاص رئيسيين بينهم سبع سيدات وثلاثة رجال . وقد فروا من مخاوف الطاعون الى حفلة تنكرية خيالية . ولكى يسروا عن أنفسهم عشرة أيام جعل كل من اللاجئين يروى قصة فى كل من الأيام العشرة. فكانت تروى كل يوم عشر قصص اذن ، فكان المجموع مائة قصة . وكانت كل مجموعة يومية من عشر قصص تتشابه فى موضوعها الى حد ما . فالقصص التى نسمعها فى اليوم التالى مثلا تدور كلها حول من قاسوا الشقاء ولكنهم أصابوا النجاح آخر الأمر. ونتسلى فى اليوم الثالث بمغامرات أوغاد لا وازع لديهم من ضمير. وقد كوفئوا على نذالتهم مكافأة لا مبرر لها ، ولكنها مكافأة ممتعة . ويختص اليوم الرابع بالحكايات ذات النهاية المحزنة . وأما اليوم السادس فيوم النوادر فتدور كل نادرة حول اجابة بارعة . وكان الواحد منهم اذا أحرج أو أوشك أن يقهر لجأ الى جواب مفحم قارص يقهر به خصمه . ويقدم لنا اليوم السابع معرضا من النسوة الخائنات لأزواجهن . وهؤلاء الأزواج رجال لا أثر فيهم للشهامة الزوجية فحقت عليهم خيانة الزوجات .

وهكذا .. ومهما يختلف موضـوع كل من القصص فان الكتاب كله شـلال واحـد يهـدر بالضحك وحتى الحكايات الحزينة لا تترك أثرا من الم . فأسي بوكاشيو لايعدو أن يكون ظلا يمتد على أرض بهيجة . ولولا اقتران سرور بوكاشيو بالأسى لكان سروره لا لون له ولا طعم . فاذا قيل : ان فولتير يضحك ليخفي دموعه ، أمكن أن يقال عن بوكاشيو انه يذرف دمعـة بين الحين والآخر ليجعل ضحكه أشحذ للشهية ، وكان بوكاشيو صاحب تهكم ولكنه ليس صاحب سخرية عابسة . فهو يسخر من الناس ولكنه لايصلاهم سعيرا . وهو يثير عليهم ضحكا طيب الروح وديعا يسرى في الناس بالعدوى حتى ليضطروا أنفسهم الى المشاركة فيه . انه يسخر من الحمـاقة ويحظى بحب الحمقى (انك ياصاحبى تؤدى فى الحياة دورا هازلا غاية الهزل) ثم يقول وهو يهز كتفه فى روح وادع (ولكن ألسـنا كلنا ذلك الرجل)

– ٤ –

ومعظم حكايات الديكاميرون قصـيرة . فهي تعد فى عرف يومنا هذا من قصار القصص القصـيرة . وهو يصور الموقف بقليل من الـكلمات ثم يصل الى نهاية مباغتة من ذلك قصـة ارمينوجر يمالدى ذلك الجشع الذى قال لصديق أريب من صحابه (أريد أن ينقش منزلى نقشا جديدا وأريد أن تقترح على موضوعا لهذا الرسم شيئا لم أره قط) فأجاب صـاحبه على الفور (ارسم التسامح) . وقصة أخرى من نفس الطراز هى مغامرة الملك فى منزل سيدة يحاول اغواءها وكان الملك يشتهى هذه السيدة فأرسل بزوجها الى الحروب

الصليبية ودعا نفسه الى منزلها لتناول العشاء وكانت السيدة لا تستطيع عصيان الملك وهى مع ذلك لا تريد الاستجابة لرغباته . فتعد مأدبة فاخرة تتكون من عدد من الدجاج قد اختلف تشكيله وطهيه . فلاحظ الملك انه لم يقدم اليه غير الدجاج واصابه الدهش فقال (سيدتى : أليس يوجد فى البلاد طعام آخر؟ .)

يوجد يامولاى . ولكن النســاء كالدجاج فهن على اختلاف المظهر سواء فى كل مكان .

فأدرك الملك ما ترمى اليه السيدة وعاد الى زوجه فى هدوء . وفى هذا الطراز من القصص كان بوكاشيو يغير فى المفاجأة بأن يدفع بها الى مفاجأة أعظم ، فيكون الختام مفاجأتين لا واحدة. ومن خير الأمثلة لهذا النوع فى الديكاميرون قصة (ابراهام اليهودى) وكان ابراهام هذا شخصا بلغ من الأمانة والصدق بحيث تاق صديقه جيانودى شيفينى الى ادخاله فى المسيحية . ولكن اليهودى لايستمع الى رجاء صاحبه . فهو لا يقدر دينا كدينه وقد ولد يهوديا وينوى أن يعيش ويموت كذلك ، ويمضى جيانو فى جهوده رغم عناد اليهودى حتى يقبل اليهودى آخر الأمر أن يدخل فى المسيحية قائلا (ولكنى قبل أن افعل أريد الذهاب الى روما لأرى البابا وأتدبر سلوكه شيئا ما . وأتدبر سلوك هؤلاء الكرادلة الآخرين ، فاذا بدوا لى بحيث أفهم من سيرتهم ان دينهم يفضل دينى فانى فاعل ما تريد والا فأنا مقيم على اليهودية).

فاذا سمع جيانو بذلك أصابه قلق شديد وقال لنفسه (لقد ضاعت كل جهودى ، لأن ابراهام لو ذهب الى روما ورأى شرور رجال الكنيسة فلن يقتصر على رفض الدخول فى الدين المسيحى بل سيتحول الى اليهودية ولو

كان أصلا من المسيحيين) لذلك حاول أن يصرف صديقه عن الذهاب الى روما . لكن اليهودى أصر على ما اعتزم، فأسرج حصانه وذهب الى روما وأخذ فى دراسة أساليب القسس ولشد ما أدهشه انهم منغمسون فى كل ألوان الرذيلة وانهم فى مجموعهم أشد حرصا على بطونهم منهم على أى شىء آخر. وجدهم يحبون المال بحيث لايتحرجون ان يصيبوه لا من دماء الناس عامة فحسب ، بل من دماء المسيحيين انفسهم . هذه وأمور أخرى لن أذكرها صدمت شعور اليهودى ، وكان شخصا أريبا وادعا ، فاكتفى بما رأى وعاد الى بلاده .

قد يبدو ان هذا ختام منطقى للقصة ولكن بوكاشيو الضاحك السن أبدا ينعرج بالقصة الى مفاجأة ختامية تحيل قصة جيدة وكفى الى احـــدى روائع الأدب . فابراهام حين يعود من روما يخبر صاحبه انه قرر اعتناق المسيحية برغم ماشهد (لأنه اذا كان رجال الـــكنيسة يبذلون هذا الجهد لقتل الدين المسيحى واذا كان الدين المسيحى ينمو فى سرعة كبرى رغم كل ماعملوا لتشويهه فمن اليسير أن أرى ان روح الله ترأمه لأنه أصح الأديان وأقدسها) .

ويستطيع جيوفانى الهادىء أن يتسامح لا فى معتقدات الناس وكفى ، بل وفى أخطائهم ايضا فموقفه العام نحو (خطايا الحياة الصغيرة غير الضارة) هو (أسعد الله من يحظون بها) فاستمتع وامتع حيثما استطعت فليس عارا أن تمتع نفسك بشرط أن تشرك غيرك فى متعتك واذا ضبط أشخاصه فى أشد لحظاتهم حرجا لم يخجلوا قط من أنفسهم ، فهم يدركون كما يدرك الرياضـــيون الطيبون ان موقفهم مثير للضحك وهم على اســـتعداد

لان يهبوا لمن ضبطوهم وقتا سعيدا .

ان بوكاشيو أمير شعراء الضحك فهو يرغب عن تصوير الحزن لأنه يعجز عن بثه . فهو من السلاسة والدعة بحيث لايستطيع ايذاء أحد . ويقف بوكاشيو وحده فى عصر عرف بالتعصب والحقد رجلا بريئا كل البراءة من التعصب والحقد على اختلاف صورهما . فعنده ان العنصر والطبقة الاجتماعية والعقيدة والأمة كلها كلمات تعنى شيئا واحدا . فكلها وحدة صغيرة من الناس تنتظمها اخوة البشر الكبرى . وكان شعوره الوطنى فاترا غير مكترث . ذلك بأنه وطنى عتيد، وطنه العالم كله . فهو يسمح لكل انواع الناس من شتى البقاع بأن يشاركوا فى هذه الزمالة العالمية الطيبة . فيحترم الفرنسيين كما يحترم الايطاليين ، ويحترم اليهود كما يحترم غير اليهود . ومن أجمل قصص الديكاميرون ، بل ومن أثمن الدرر فى الآداب كلها حقا قصة (الخواتم الثلاثة) لبوكاشيو .

هذه الخواتم الثلاثة ترمز للاديان الثلاثة ، اليهودية والنصرانية والاسلام . وقد قال بوكاشيو فيها (كان لرجل عظيم من الأغنياء خاتم فائق الجمال والقيمة . وكان يريد لهذا الخاتم أن يبقى لأسرته الى الأبد . فقرر فى وصيته ان الذى سيعطى خاتمه من ابنائه فهو وراث الأب . فليعترف له بذلك ، ولينل من التوقير ما تحوله له رئاسة الأسرة) ويمضى بوكاشيو فيقول (مات الرجل الغنى حين جاء أجله . فورث ابنه خاتمه الثمين وظل الخاتم أجيالا كثيرة يتوارثه خلف عن سلف ، حتى انتهى الى رجل له ثلاثة بنون ، كلهم فاضل مستجيب لواجبه نحو أبيه فأحب الأب ثلاثتهم على السواء . وحرصا من

الأب على أن يخلف لبنيه الثلاثة هدايا متساوية القيمة كلف الجوهرى بأن يشـــكل خاتمين آخرين على غرار الخاتم الأصيل . فاذا أعاد الجوهرى الخواتم الثـلاثة كانت من التشابه فى قيمتها وجمالها بحيث عجز الأب نفسه عن تمييز الخاتم الأصيل من سواه . فاذا حضره الموت منح كلا من أبنائه الثلاثة خاتما وعندئذ شـجر الخلاف بينهم ، فكل يدعى انه صاحب الخاتم الوحيد الأصيل .

فاختصموا الى القانون ليقرر أيهم صاحب الحق . ولاتزال القضية منظورة لم يفصل فيهـا الى اليوم) ويختتم بوكاشيو قصته بقوله : هـذا ماحدث للأديان الثلاثة التى منحنا الله (الأب) . فكل أصحاب دين يعتقدون انهم ورثة الله الحقيقيون ولكن لم يحكم لأينا بأنه صاحب الحق ، كما لم يحكم لأصحاب الخواتم .

واذا كان لايستطيع أحد منا أن يتحقق أينا آثر الى الله فالأليق بنا جميعا ان نحقق الشركة العامة بين بنى الانسان فتتعاون أمم العالم على الخير .

— ٥ —

كان بوكاشيو فى أعوامه الباكرة يلهو بالدنيا ، وهو فى أعوامه التالية يؤدى عملا جادا من أعمال الدنيا . فهو يلقى سلسلة من المحاضرات عن دانتى ، ويسافر الى أقطار شتى ليؤدى طائفة من المهمات السياسية . وكاد أن يترهب ويدخل الدير ليكفر بذلك عن الجريمة التى ارتكبها اذ ألف الديكاميرون . ولكنه أغرى بالعدول عن هذا الرأى فمات كما عاش مذنبا بشوشا بدلا من

ان يختم خياته قديسا عابسا .

وانا اذا استعرضنا ذلك الرهط الجميل من مذنبى العالم الباشين من الرجال والنســــاء الذين يحبون ويصفحون ، ويأملون ان يحبهم الناس ويغفروا لهم ، تبدى لنا جيوفانى الهادىء وسط هـــذا الرهط وقد احتل مكانا غير هين .

فرانسوا رابليه

(١٤٩٥ - ١٥٥٣)

- ١ -

من عجيب الأمر ان أعظم الكتاب ، أولئك القادرين على الحديث عن غيرهم فى فصاحة واسترسال، يلتزمون الصمت فيما يتعلق بأنفسهم . فنحن لا نعرف عن حياة رابليه الا قليلا . كما لانعرف عن حياة شكسبير غير القليل . فقد شغف كل منهما بتسجيل أفكاره بحيث نسى ان يحدثنا عن نفسه . ويمكن سرد قصة رابليه فى بضع مئات من الكلمات .

كان فرانسوا رابليه مدينا بخشونته الصريحة السليمة الى دم الفلاحين الذى يتدفق فى عروقه ، فأجداده الاقربون قد تخرجوا من طبقة الفلاحين والتحقوا بالطبقة الوسطى . وكان أبوه (انتوان رابليه) ثريا من ملاك الأرض ومحاميا فى (شينون) تلك المدينة التى بدأت فيها جان دارك حياتها المجيدة قبل ذلك بنصف قرن. وولد فرانسوا سنة ١٤٩٥ ، ولا يعرف شىء عن طفولته ومراهقته . ولا نلمح صورة واضحة له الا وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، فنراه شابا طويلا رقيقا مرحا بالغ الوسامة قوى الجبين ، عظام خديه بارزة قوية، وعيناه رائعتان ، ومعارفه تبعث على الدهش ، ومن المشكوك فيه ان رأسا آخر فى هذا العصر قد استطاع استيعاب مثل هذه الذخيرة الضخمة من المعلومات .

ولا يعرف على التحديد أين تلقى تعليمه ، وان كان من المعروف انه انضم عام ١٥٢٠ الى اخوان القــديس فرانسيس فى «دير بوى سنت مارتن» ولايعلم أحد سبب دخول رابليه فى تلك الطائفة .

فان شخصيته المرحة لاتبدو متلائمة مع حياة التواضع والفقر التى يطلب الى الاخوان الفرنشيسكان التزامها. ولعله اتخذ هذه الخطوة ارضاء لبعض اصدقائه الذين سبقوه الى الانضمام الى الفرنشيسكان . فلقــد كانت الصداقة هى العاطفة القوية التى تسود حياته . وكان مما يسره أعظم السرور أن يمنح الآخرين السرور وفضلا عن ذلك فان حياة الدير لم تكن خالية مما يرضى رجل المعرفة . فهى تمنحه الفراغ ليتعلم ويكتب ، وتخليه من المسئوليات المالية . فاذا تصـــادف ان كان من محبى المغامرة كما هو من محبى الدرس ، مكنته الـكنيسة من ان يسافر مبشرا ، أو وكيلا عنها فى أعمالها العلمانية . فالدير لم يكن باختصار مكانا غير متلائم مع رجل أحب المعرفة وأحب الحياة أيضا. فلم تكن الالتزامات الرتيبة المفروضة على حياة الدير بالفة الطول ولا بالغة الدقة ، فاستطاع رابليه فى دير (بوى سنت مارتن) أن يتابع هوايته الأدبية على النحو الذى يرتضيه قلبه . وكانت مدينة فونتناى التى يقع فيها هــذا الدير قد أصبحت مركز دائرة ثقافية من الانسانيين ، اعنى هؤلاء الرجال الذين حاولوا تطبيق ثقافة الماضي السامية على حاجات الانسان الحاضرة . وكانت الحلقة تجتمع بالهام من أبيها الروحى ارزم Erasmus فى حــديقة الحــاكم تراكو André Traquau حيث تحتسى نبيذها فى ظل الغار ، وتتناقش فى الشعر والسياسة والموسيقى والدين والفن وما بعد الطبيعة والاخلاق والقانون .

انضم رابليه الى تلك الحلقة على حداثة سنه ، وسرعان ما أصبح رئيسها الفكرى غير منازع .. وفى تلك الأثناء كانت تثور عاصفة من اختلاف الرأى فى فنجان مناقشاتهم الرسمية ، ذلك الفنجان الصغير الهادىء . وكان الخلاف يدور حول النساء والزواج . وكان (تراكو) الذى تزوج من صبية فى الحادية عشرة من عمرها قد ألف لارشادها كتابا عن واجبات الزوجة ازاء زوجها ، وكان يعتبر كل النساء أطفالا غير مسئولين ، ويعاملهن على هذا الأساس . ولما كان كتابه هذا يرضى المحافظين الذين أصروا على ابقاء نسائهم فى «مكانهن الصحيح» فقد قوبل بحماس ولقى سوقا رائجة . ولقب تراكو ألد أعداء المرأة فى زمنه .

أما فى دائرة فونتناى الأدبية فقد خالف آراء تراكو عدد من الشباب وكانت مخالفتهم لها شديدة . فأصدر أحد هؤلاء الشباب (الثائرين) كتابا انحاز فيه الى جانب ذلك الجنس (الأضعف شيئا) والأشيق كثيرا من الجنس الآخر ، وعندئذ ثار ثائر (تراكو) فأصدر كتابا جديدا أكبر من الكتاب الأول ؛ وهو كراسة تعليمات تبين واجبات النساء ، وامتيازات الرجال . فعلى المرأة دائما طاعة زوجها وعلى الرجل ألا يدلل زوجته قط . ولاينبغى لأى رجل أن يتزوج امرأة بالغة الدمامة أو بالغة الجمال . فهى ان كانت بالغة الدمامة لم تستطع فى الغالب امتاع زوجها . واذا كانت بالغة الجمال أمتعت فى الغالب أزواجا آخرين . ولا تدع زوجتك تعد نفسها مساوية لك . ولكن لا تبن بمن تساويك ، واحتفظ بزوجتك بعيدة عنك بعدا لائقا ، فلا تقربها منك بحيث تسحرك ، ولا تبعدها عنك بحيث تسحر غيرك من الرجال . وعاملها دائما فى قسوة رحيمة ، ولا تطعمها الا قليلا من العناق يتخلله

التهديد من آن لآخر .

وحين صدر هذا الـكتاب ثارت مناقشات حامية فى دائرة فونتناى الثقافية . وانضم كل عضو فيها الى أحد الجانبين ومن عجب ان رابليه قد انحاز الى جانب المحافظ (تراكو) . واذا كانت الحجج التى ساقها تراكو لم تثر اعجابه ، فقد كان على استعداد أبدا لأن يوجه سهام تهكمه الى حماقات الجنس اللطيف . فهو لم يكن مولعا بالنساء من حيث هن طائفة .

ولم يكن كذلك مولعا بالرجال من حيث هم طائفة ، وان أحبهم فرادى ، فقدكان يشعر ازاء الأسرة الانسانية (الغبية الشريرة) بزراية ودية . فهو يرثى (لاخـــوانه المزدرين) ويضاحكهم ويدرسهم ثم يرسمهم رسما حيا فى (بنتاجرويل وجارجنتوا) . فالمحامون والأطبـــاء والتجار والفنانون وأهل المعرفة .. كل هؤلاء من رجال الأعمال والحرف الذين كان يلقاهم فى حديقة تراكو قد أصبحوا النماذج التى يرسمها فى صوره التى تعز على الاحصاء كما تعز على المحاكاة . فهو يتعمق أشخاصه ، وينفذ الى صميم قلوبهم فى يسر لم يتطامن الا لشكسبير، كان يعرف كل ألوان الناس على اختـلاف أعمـــالهم ومهنهم . فلقد كان يعرف أحوال الفـلاحين فى شينون ويتحدث بلهجتهم ويحلل عواطفهم ، ويفهم أفكارهم . ونفذت بصيرته الى أعماق حياة الاخوان الفرنشيسكان. وأمدته الألفة بحكام فونتناى بالأساس العملى لدراسة السياسة . وهو الآن موشـك على خطوة جـديدة فى برنامجه ، هى استقصاء الأفق المستدير للعادات والناس. فهجر الفرنشيسكان وانضم الى البندكتيين وكانت لهذا أسباب ثلاثة :

أولها ان الانتقال الى هيئة من القسس أرقى تعلما أمر يعينه على متابعة دراساته فى مزيد من اليسر. وثانيها ان رئيس دير البندكتيين الذى انتقل اليه رابليه كان من أرقى رجال المملكة فى ثقافته . وثالثها ان رئيس الدير قد عرض عليه وظيفة الأمين المتنقل له . (وهذه فرصة الهية لتوسيع خبرته بالعالم) فسافر الىايطاليا. وكانت هذه الرحلة عند رجل خصب الخيال مثله اشبه برحلة الى أرض الجان والخيال . فبدت له روما ذلك الملتقى للجمال الوثنى والتقوى المسيحية ، مدينة حوت آلاف المباهج . فأسماها فى لغته الرائعة (عاصمة العالم) وتعلم فى فترة مقامه القصيرة بها كيف يعرفها عن كثب ، كأنما قد قضى بها طول حياته وكتب بعد عودته من ايطاليا يقول (ما من بيت يعرفه صاحبه أكثرمن معرفتي لروما بكل شوارعها وأزقتها) . وسافر رابليه فىصحبة رئيس الدير الى أقطار أوربية أخرى . وكان أينما حل ينصرف همه الى دراسة الناس وأمرائهم فىشتىمواقفهم وأعمالهم وطباعهم . واتيحت له فرصة ملاحظتهم فى السلم والحرب . اذ كان المعتدون وقتئذ كما ظلوا طوال التاريخ البشرى ، يحاولون سلب الحقوق منأصحابها. فملوك فرنسا وأسبانيا يدمرون مقاطعات شمالايطاليا ، وكان سلطان تركيا يحاصر فينا وكان جنود المانيا يسحقون روما بأقدامهم .

وهكذا كانت الأمور تجرى فى دوامة مستمرة من الجنون وسفك الدماء . وشهد رابليه ذلك المنظر المخزى لقسوة الانسان بالانسان ، فقرر مهاجمته بالضحك لا بالغضب . فهو فى الفصل الثالث والثلاثين من (نيتا جرويل) يكشف عن غباء الحرب العدوانية بأن يصوغ منها مهزلة سافرة ، فالدوق بيكروشول (الممرور) يتلهف

على أن تزيد مجده ، ويعمر خزائنه ، وهو من المؤمنين بتلك الفكرة المضحكة القائلة بأن الطريق الوحيد الى رخاء قطر من الأقطار انما يكون على حساب الأقطار الأخرى. لذلك يرسم خطة الهجوم على جيرانه . وتكون قيادة الحملة لشركائه الثلاثة فى الجريمة (سير سمول تراش) والكونت (سواش بكل) ولورد (لوسى لوكس) ويدعو قواده الثلاثة الى الاجتماع به ، ويرسم المجلس خطة لحمله هدفها أن تكتسى بلادهم ثوب المجد وتكتسى أرض جيرانهم جثث الموتى (ولكن كان من شهود الاجتماع سيد مسن خبير بالحروب يقال له (ابشفرون) (اليقظ الحواس) قال حين سمع خطة الحملة (انى لكبير الشك فى ان هذا المشروع كله سيكون أشبه بقصة الجرة المليئة باللبن التى خدع الحذاء نفسه بأنها ستجلب له الغنى، فلما كسرت الجرة لم يجد عشاءه .. ماهدفكم من تلك الانتصارات الضخمة ؟ لن تزيدوا عن كسر جرتكم) فقال الكونت سواش بكل : (يالك من ساذج ! اذن فلنختبىء فى ركن قصى ، حيث نقضى اعمارنا بين السيدات نطرز ونغزل وننظم العقود . ان من لايغامر لا يجد له حصانا ولا بغلا) فأجابه ايشفرون . (ولكن من يسرف على نفسه فى المغامرة يفقد كلا من الحصان والبغل) وهنا لباب فكرة العسكرية العدوانية . لقد كان رابليه يسلم كما يعلم كل عاقل فى كل عصر ، ان الانتصار النهائى لايتحقق للمعتدى وان انتصاراته الأولى ان هى الا مقدمة هزيمته النهائية.

بيد ان رابليه لم يكن عميق الاهتمام بمسألة السلم والحرب . بل لم يكن فى الواقع عميق الاهتمام بأية مسألة سياسية أو اجتماعية . فهو فى جوهره كاتب فكه مرح لاكاتب متهكم ساخر. فهو لا يبلغ غاية سعادته ــ كما يقول ــ الا حين يستطيع (الجلوس والراحة والطرب)

للمسلاة البشرية التى لايبـدو لها معنى ، وكان دائما منشرح الروح . فعواء الساخر القاسي الفؤاد لم يجد سبيلا الى ضحكه . لقد كان ينعم بالهضم السليم بحيث لايثور ثائره لحماقات رفاقه . وكانت نظرته الى الحياة دائما غير شخصية . فكان أشبه بمخلوق علوى أرسله سكان كوكب آخر ليعود بتقرير عن المهزلة الممتعة التى تمثل على الأرض .

وكان مصورا للحياة لا يشـــبع نهمه ، فلذلك كان يحاول دائما أن يرقب الحياة من زاوية جديدة . فما كاد يتم مهمته مع الرهبان البندكتيين حتى أخذ على عاتقه أن يدرس الطب. وكان فى الثانية والثلاثين من عمره حين بدأ دراساته الطبية بجامعة منتبليى . وحصل على اجازة الطب بعد ذلك بثلاث سنين فعكف على مهمتـــه الخطيرة فى الحياة، وهى ابراء الناس من امراضهم بالدواء والضحك . فبدأ يكتب التذاكر الطبية ، ويكتب (بنتا جرويل) وما مضت خمس سنين حتى قدم كتابه الرائع الى العالم باسم مستعار .

— ٢ —

ولايمكن ادراج قصة بنتا جرويل تحت اى عنوان مما يصطنعه مصنفو القصص . انها مزاج عجيب من الجنون والأخلاق ، والخشونة والجمال ، والامتهان والاخلاص، واللغو الميتافيزيقى والحكمة الفلسفية ، والهذر الطائش والروعة الشعرية . انها أشبه بالحياة فى انها لا تنتظم فى خطه ، وانها مليئة بالمفاجآت . فالـكتاب كله زاخر بالتواءات الفكرة . وتغيرات الأسلوب ، على نحو ما كان لغير الله ورابليه ان يتصوره على الاطلاق . فهو يقودك

فى طريق ممتع ، وعلى حين بغتة يواجهك بجبل لا سبيل الى اجتيازه . فاذا وقفت مذهولا مستيئسا من خدعته ، فتح لك فجأة نفقا فى الجبل ودار بك من خلال كهوف جميلة تحت الأرض لا تخطر على بالك حتى فى الرؤى . ولا تكاد تخرج الى ضوء الشمس حتى يغلبك على امرك بطوفان من القذارة يكاد يذهب بأنفاسك. فتكاد تستيئس منه فى تقزز واذا هو ينظفك وينعشك بحمام سحرى من ندى الصباح ، فتشعر باستعداد للمضى معه الى سحر ما سيهديك اليه من مناظر الأرض التالية .

هذا هو الأثر أو بالأحرى سلسلة الآثار التى يحدثها رابليه فى عقل قارئه. انه حرباء عالم الأدب ، وهو الساحر صاحب الملايين من الأطوار والأخيلة . لم يكن رابليه يحترم الصورة الأدبية فاذا نحن نظرنا من الوجهة الفنية الى قصة بنتا جرويل وجدناها أخلاطا من اللغو غير منطقية . يصف الكتاب الأول مولد جارجنتوا أبى بنتا جرويل وطفولته وتعليمه ــ وكيف اتى الى باريس وسرق نواقيس (نوتردام) ليعلقها حول عنق جواده ، وكيف انتصر جده على بكرشول بفضل معاونة أخيه جون . وكيف جازى الراهب على ذلك بأن بنى له (دير تيليم) الذى صار مقر المذهب الدينى الذى يقال له (افعل مابدا لك) .

ويخبرنا (رابليه) ان القاعدة الوحيدة التى يفرضها هذا المذهب هو الا تراعى قواعد على الاطلاق . وليس بالدير ناقوس يذكر أحدا بالزمن او بالواجب . وليس على رهبان هذا الدير وراهباته أن يقسموا اليمين الثلاثية على التزام العفة والفقر والطاعة . بل لهم ان يتزاوجوا وأن يكدسوا الثراء ويخضعوا القانون لما يشتهون .

وابواب هـــذا الدير موصدة أبدا فى وجه (المتعصبـــين والمنافقين والمحامين والقضـــاة والحكام والصيرفيـــين والفاسقين والكذابين والجبناء والفشاشين واللصوص. وانما برحب هذا الدير برجال ينشدون المتعة ، ونساء قادرات على الأمتاع ، بعشاق أولى مرح وذكاء وطلاقة وطرب ورشاقة ودعابة ووسامة وكياسة وجدارة ودعة ومجانة ، ونســـــــاء يشتهين ممتعات ضاحكات بارعات يسبين العقول ، ساحرات مغريات ناضجات غيـــد ، عزيزات رفيعات المكان غنجات رقيقات جميلات لا غاية بعدهن لمستزيد بارعات فواتين) .

هؤلاء هم الرجال والنساء الذين اكتفينا فى وصفهم بحفنة من الصفات التى خلعها عليهم رابليه ، الذين منهم يتكون أعضاء المذهب الجديد (افعـــل مابدا لك) وهم يقضون حياتهم فى المرح لا فى الصـــــوم . وفى الامتـــاع والاستمتاع وفى الرضا الهادىء بامتـلاء البطن ومرح القلب . أشبع رغبتهم تقتـــل جشعهم لأن من طبيعة الانسان أن يتلهف على ما يمنع عنه .

ويختتم الجزء الأول من القصة بتلك الصورة الهزلية لدير تيليم ــ ويتنـــاول الجزء الثانى مولد وتعليم ابن (جارجنتوا) ويدعى (بنتا جرويل) ولقاءه ببانورج Pamurge ذلك الطبيب المخادع الذى يعـــانى من خواء مزمن فى جيبه . وهو سكير عربيد متهتك لايلحق بغباره فى الخسة والاستهتار، أحد فى باريس . وهو فى كل ماعدا ذلك من الأمور أرق انسان فى العالم . وبعد اذ يقدم المؤلف بطله على هذا النحو الرسمى يأخذنا من يدنا أو قل من أنفنا ويجوب بنا عبر آفاق اللامكان الى بساتين اللغو. ويقول رابليه (انى أدعو عليكم بالوقوع فى الكبريت أو النار أو

فى بئر غير ذات قرار ، اذا لم تؤمنوا حق الايمان بكل شيء ارويه لكم فى هذه الرواية) كيف فر بانورج من أسر الأتراك وكيف انتصر على أربعة عشر وستمائة الف كلب ليلطخ سيدة تمنعت عليه ، وكيف نسل بانتا جرويل بطريقة بالغة الغرابة ثلاثة وخمسين ألف رجل صغير ومثلهم من النساء الصغيرات .. وكيف أصاب النصر الباهر على المرأة وكيف ان (ابستمون) قد عاد الى الحياة بعد أن قطع رأسه ليخبر العالم بآخر انباء الجحيم . وهكذا يختم الكتاب الثانى بهذه العبارة (طابت ليلتكم أيها السادة ولا تكثروا من التفكير فى أخطائى بحيث تنسون أخطاءكم) .

والجزء الثالث من هذا الخيال الهازل والحماقة الخداعة يقل منطقية حتى عن الكتابين الأولين من حيث بناؤه . يبدأ بصورة الفيلسوف ديوجين الذى دحرج برميله على منفسح ثلاثة ومائة فعل على التتابع . ولم يحظ شكسبير نفسه بمثل هذه السهولة المذهلة فى استخدام اللغة . ثم ينقلنا رابليه الى أرض النعيم المقيم Utopia هذه الأرض المستحيلة الوجود تمام الاستحالة يقطنها ثمانية ملايين من السكان عقدوا العزم على فتح العالم . على انهم لايستخدمون فى ذلك قوة السلاح ، بل اخلاء الناس من همومهم ، وتعليمهم كيف يحيون حياة آمنة طيبة . فيمنحونهم قوانين خيره ويعاملونهم بأقصى ما يمكن من الرقة والمجاملة والدعة والحب . وبعد أن ينقلنا المؤلف الى هذه الأرض التى تهفو اليها القلوب ويعد أجنحة آمالنا للتحليق فى مغامرات جديدة ، يوقف الوصف فجأة ويخصص كتابا كاملا للكلام عن الزواج . وقد بعثه على ذلك ان بانورج يريد الزواج لكن يحمله على التردد فى انجاز تلك الرغبة خوفه

من ان زوجته قد تخونه . وتشغل هـــذه الحيرة عقله فيشرع فى بحث يستغرق اربعة وثلاثين فصلا عن النساء. وهل هن أمينات أم خائنات لأزواجهن . فيشاور عددا كبيرا من الناس منهم نبيه وشاعر وأخرس أصم وفلكى وفقيه دينى وفلاح مهرج بسيط .. ويدعهم جميعا وقد تزود بالألفاظ ولم يتزود من الحكمة بشىء . على انه تلقى من الفلاح البسيط اقتراحا عمليا .. هو أن يحيل مشكلته الى مهبط الوحى الذى يعرف الجواب على كل سؤال .

وهـــذا يؤدى بنا الى الـكتابين الرابع والخامس ، الرحلة الى مهبط الوحى . وقد أثارت الرحـــلة روح المغامرة والضحك فى كل ارجاء الأرض وما فوقها وما تحتها فاذا وصل بانورج وبنتا جرويل آخر الأمر الى نهاية الرحلة ، علما من مهبط الوحى أن الجواب الوحيد على سؤالهما ينحصر فى كلمة واحدة (اشرب) اشرب عبا كأس الحياة والجمال والمتعة والمعرفة والحقيقـــة . (وكل هذا مستحب) كما يقول (بانورج) ولـكنه لايزيد حكمة فى شأن الزواج عما كان عليه قبـــل الرحلة الى مهبط الوحى .

وهكذا ينقطع بلا تمهيـــد ذلك الخيط المعقد الذى لافكاك له من اللغو السامى الذى بدأ فى غير مكان ، ولم يؤد الى مكان . ولنكتف بذلك فى شأن الخطة غير المنطقية للقصة . ولننتقل الى التفصيلات فنجدها قد عولجت بنفس هذا القدر من الاهمال غير المنطقى . فجارجنتوا فى بعض الفقرات مارد جبار ، وهو فى فقرات أخرى رجل عادى فى طوله . ويكون (بانورج) أحيانا رجلا عاقـلا شجاعا أمينا وفى أحيان أخرى يكون محتالا أحمق جبانا. وأحداث القصة تسير فى دوران جنونى مرح كأنها العالم .

وفى الكتاب الأول يحيا جارجنتـــوا فى أرض النعيـــم الأسطورية ونجده فى الكتاب الثانى قد اختطف بلاسبب ولا مناسبة الى تورين مسقط راس رابليه . وفى الفصل الثالث والعشرين من الكتاب الثانى يختفى جارجنتوا من القصة بعد أن تحول الى أرض الجان . ثم يأتى الفصل الخامس والثلاثون من الـكتاب الثالث فنجده قد عاد الى صفحات الكتاب وكأن شيئا لم يصبه . وهذا قليل مما يزخر به الكتاب من عدم الاتساق . لم يكن رابليه ممن يحسبون حسابا للعقول الصغيرة . فانه اذا وجه همه الى خلق احدى الروائع لم يحتفل بتافه الأمر كما يحتفل به أصحاب الصناعة الأدبية . وانه ليحدث أحيانا أن يكون خير الفنانين من أردأ الصناع ، فحمدا لله على ذلك ! ..

ـ ٣ ـ

يبدو عمل رابليه فى ظاهر أمره ـ كما رأينا ـ دعابة هاذرة طائشة حائرة لامعنى لها ولا خطة . ولكن لنعد الى فتح باب الخزانة ، ولننظر نظرة ادق الى بعض ما حوت من كنوز تثير العجب . فما الذى نبدأ بفحصه ؟ ان المشهد غنى بالغرابة والخصب والتنوع والاذهال ، غنى بالحياة بحيث تصيب العقل منه نشوة فلا يسعه ان يقرر ماذا يختار . وليس من سبيل لتقدير رابليه الا بأن تقرأه من أوله الى آخره . غير اننا رغبة فى تقديم نموذج للنكهة الفريدة لعمله ، سنأخذ منه أية صفحة على نحو عشوائى تقريبا .

انظر مثلا كيف يتهكم على العجرفة غير ذات المعنى فى أحكام القضاة بالمحاكم . فلقد اشتبك لوردكسبريتش

ولورد سكسفت فى مناقشة فى حضرة بنتاجرويل. وفيما يلى حكم بنتاجرويل بعد أن سمع أقوال الطرفين : (بعد رؤية وسماع وتدبر وبحث الخلاف بين لورد سكسفت ولورد كسبريتش تقول لهما المحكمة انه بالنظر الى ما أصاب الخفاش على حين بغتـــة من الرعد ، والارتجاف والمشيب ـ فانسحب فى شجاعة من الاعتدال الصيفى ـ والمحاولة بوسائل خاصة ازعاج بنادق اللعب عنـــــد المصابين بقليل من التوعك لاسرافهم فى الجرعة بسبب المظهر الشيق واستفزاز الخنافس التى تسكن فى الجو المعتدل لنسناس منافق على ظهر جواد قد شـــد الى الخلف وترقوس . فان المدعى صاحب حق فى العجل الصغير ، أو ان يسد بحبال القنب شـــقوق السفينة التى نفختها المراة الطيبة واحدى قدميه منتعلة والأخرى حافية ، فيدفع له ويعاد اليه لضميره الدنىء اليابس من الفستق الجبلى أو الخرشوف بقدر ما فى اثنتى بقرة من الشعر ويدفع مثل ذلك للمطرز ومبلغ كذا لفلان . كذلك تعلن المحكمة براءته من التهمة المترتبة على التدليس فى الخطر الذى ظن انه محدثه)

وهكذا وهكذا تمضى صفحات كثيرة . رفى ختام رطانتها يأمر القاضى المدعى بأن يدفع للمتهم غرامة حوالى منتصف أغسطس فى مايو ، واذا شكا القارىء من انه لم يفهم شيئا مما كتب ، فان المؤلف يعترف له فى ابتســـامة ماجنة (وكذلك أنا لم أفهم شيئا) وكان رابليه يزدرى مهنة القانون زراية سليمة كان يقول (ما أشبه قوانيننا ببيوت العنكبوت ، توقف الذباب الغبى ، وتمسك به ، وتدمره فى داخلها ولكن الحشرات الأقوى تحطمها وتقذف بها وتحملها حيث شاءت) .

وعيب معظم المحامين فى رأيه هو ان كثيرا جدا من الكلمات تجرى على ألسنتهم ، ولايوجد فى رءوسهم من الحكمة الا أقل القليل .

ويصدق هذا فيما يقول رابليه على معظم الفلاسفة ، وخاصة فلاسفة ما وراء الطبيعة الذين يصفون فىعبارات العلماء ، ويقيسون فى دقة العلماء ، أشياء لا وجود لها. ويحدثنا رابليه ان أحد هؤلاء الميتافيزيقيين قد كتب بحثا علميا موضوعه : « هل تستطيع العنقاء اذا أزت فى الفضاء أن تلتهم الغايات الثانية » وانآخرين يشغلون انفسهم بمثل هذه المشكلات : هل تستطيع فكرة افلاطونيـــة ، تقفز الى اليمين تحت فوهة العماء ، ان تعصف بذرات ديمقريطس أو هل برد الشتاء فى جزء الأرض المقابل لنا اذا أمر فى خط اكثيولوجى عن طريق الصلابة المتناسقة للمركز ، يستطيع عن طريق احداث حركة مضادة للحركة الدودية للأمعاء ان يدفىء الغشاء السطحى لكعب الانسان (الا سحقا لهؤلاء الطبول الجوفاء الذين يخنقون الفكرة حتى يقتلونها تحت ستار من الألفاظ) .

هؤلاء العلماء المزيفون الذين تتضاعف معلوماتهم . ويتناقض عدد مايعرفون عنه ، حتى يعلمون كل شيء عن لاشيء ، هؤلاء المدرسون العميان الذين يعلمون عميان ، انما يتخبطون فى حجرة ظلماء يبحثون عن فأر اسود لا وجود له .

يخلصنا رابليه من كل ما شابه ذلك من سخف حين يواجهنا لا بأفكار لا وجود لها ، بل بحقائق ملموسة . وهو يمكن لنا من ان نخبر هذه الحقائق بكل حواسنا الحية . بيد انه يلمس حواسنا بأشعة العقل .

وان خياله الخصب ليتراقص على الصفحات وتتدفق منه الحكمة والجمال . فهو من ابرع أساتذة العالم فى تفسير الحق عن طريق الخيال ، وكتابه ملىء بالنوادر المنيرة والقصص الخرافية المثيرة . وان بعضا من نوادره وقصصه لاترضى عنه الأذن خجلا واستحياء . ولكنها جميعا تضىء جنبات القلب بوهج الفهم . والحياة كلها عند رابليه نادرة من النوادر ، دعابة الهيئة ذات نهاية لاذعة . ولولا اللذع المسرحى اعنى لولا صدمة الدهشة لما استحقت حياة ان نحياها . ولا استحقت قصة ان نقرأها . وكان رابليه مسرحيا حقا . ويجب حين نقرأ قصصه ان نتوقع ما لايتوقع، وانه ليجد هذه المفاجآت فى مغامرة الرجل الذى تزوج من امرأة خرساء . وفى نادرة فرانسوا فيون وادوارد ملك انجلترا وفى قصة الحمال الذى دفع رنين المال ثمنا للدخان الذى على الخبز وفى الأدوية الخمسة التى استخدمها بانورج ليخضع بها شهواته الجسدية . وفى أمتع هذه الدرر جميعا ـ قصة خاتم هانس كارفل . ولعل هذه القصص تبدوخشنة للغتنا الانجليزية الحديثةالبسيطة الصريحة، ولكنها فى الظلال المرهفة للغة الفرنسية فى القرنالسادس عشر لايبدو فيها شىء من الخشونة . فلقد كان رابليه يعرف دائما كيف يمزج أشد خموره حرافة بنكهة الادراك السليم .

ـ ٤ ـ

على ان السنوات الأخيرة من حياة رابليه كانت تختلف عن قصصه فى انها كانت ممزوجة بالتوابل ، ولكنها لم تكن ممزوجة دائما بالادراك السليم . فقد حاضر فىالطب

وكان من أول من أدخلوا تشريح الجثث فى دراسة علم التشريح واختراع آلة جراحيـــة تدعى قاطعة الألسن Clottotomon وعاش فترة فى دير القديس مور، فقد نفى نفسه اليه بوصفه راهبا صحيحا ، ان وجد حقا راهب صحيح منذ وجدت الرهبانية . غير انه قد تدخل فى السياسة بعد ذلك وسجن وبعد فترة قصيرة أفرج عنه . فعمل مستشارا لناشر — وحاول كذلك ان يمثل على المسرح ، بوصفه متنفسا لطاقته الدافقة .

ثم عاد الى الدير . وانضم الى رجال الدين ، وجدد قسمه على التزام العفة . وحنث به وصار أبا جسديا كما هو أب روحى ، وندم على ضعفه ثم ندم على ندمه، وأخيرا نام نومته (٩ ابريل عام ١٥٥٣) غنيا بالمغامرات لا بالسنين .

وهكذا عاش وضحك ومات ساخر بذ الســاخرين أجمعين مرحا وطربا .

ميجل دى سرفانت

(١٥٤٧ – ١٦١٦)

– ١ –

نحن مدينون لسيرفانت بقصتين من أمتع القصص فى تاريخ الأدب . أولاهما : قصة حيـاة دون كشوط العجيبة ، والثانية : قصة حياة سرفانت التى تفوقها عجبا .

ومن أسف ان كتاب سيرة سرفانت يميلون الى اسقاط ما لايسيغونه من هذه السيرة . ولكن ماذا يحول دون اعجابنا بآثاره الأدبية وروايتنا سيرته رواية صادقة فى الوقت ذاته ؟ انه لا يضير الورود انها تنمو من التربة العادية ، وان جمالها طعامه الماء والطين . كذلك الشأن فى فن سرفانت . فهو ثمرة عذابه وآلامه . ولو كانت حياة سرفانت أقل مرارة مما كانت لقصرت رواية دون كشوط عن بلوغ ما استشرفته من آفاق .

وكان ميجل دى سيرفانت سافيدرا معاصرا لشكسبير ولد فى المدينة الجامعية (البكالادى هنارس) لكنه لم يكد يفيد من جوها الثقافى فى حياته الباكرة ذلك لأن أباه كان طبيبا مشعوذا ينتقل من بلد الى بلد يصيب رزقه من تقديم الدواء ، وتقطيع الأوصـال من أولئك الشياطين التعساء الذين يلتمسون لديه الشـفاء . وكان ميجل الصغير الذى يصحب اباه فى أسفاره لا يكاد يتعلم من

الـكتب شيئا ، وان تعلم من الحياة كثيرا . فان فاته الالتحاق بالكلية فهو على ذلك شاب واسع الادراك مدرب على شئون الحياة ، فقد اشترك فى مبارزة وهو لم يزل حديث السن شيئا ما . وما هى الا فترة قصيرة ثم وقع فى حبائل حب مشوب لاحدى وصيفات الشرف .

وانه لحثيث الخطا فى جمع مادة لكتبه المستقبلة . فنراه بروما فى عامه الثالث والعشرين . ولعله منها فى منفى بسبب ما اقترف من حماقات الشباب . ويشتغل فى هـذه المدينة قرابة العام . ثم يحدو به قلقه وعدم استقراره الى التطوع فى الجيش . ثم يشترك فى واقعة (ليبانتو) ويكاد يفقد يده اليسرى فى هذه الموقعة من أثر ضربة سيف تخلف بها جراحا تعطلها طول حياته فيطلق عليه « كسيح ليبانتو » ويظل حتى آخر ايامه مزهوا بكفاءته العسكرية العادية اكثر من زهوه بعبقريتـه الأدبية النادرة .

وفى عودته من الحرب يقع فى يد قرصان مراكشيين، فيبيعونه بيع الرقيق . ولم يفد من عبوديته الا بعـد خمس سنين . وهو بعد اذ مارس حياة الجند وحياة الرقيق يجرب حظه فى الشعر ، ويوفق فيه الى اخراج طائفة من القصائد تعد من أردأ ماعرف الأدب الاسبانى من شعر مكسور . وهو على قلقه وعدم استقراره اذ يتجه الى المسرح فيؤلف بين عشرين مسرحية وأربعين . فياله من بركان من النشاط ثائر .

ولكنه يقذف بالرماد ولا يقذف بالحمم . فمسرحياته أردأ من شعره أن جاز ان هناك ما هو أردأ من هـذا الشعر . ويحاول آخر الأمر أن يكتب قصة من قصص الرعاة . فيكون فشله فيها آلم ما أصابه من فشل .

وبدا سيرفانت وكأن القدر لايريد أن يسلكه فى الأدباء .

لقد فشل سعيه لاصابة الشهرة . واستقرت به النوى ، ليبحث عن السعادة . فتزوج من سيدة تصغره بثمانى عشرة سنة . لكنها على شبابها تعجز عن ارضاء خياله الجوال الآفاق . فما هو الا عام بعد زواجهما حتى كان أبا لطفل .. من امرأة أخرى .

وحاول بعض الوقت أن يصيب بسن قلمه رزق أسرته متمشيا فى ذلك مع القانون والطبيعة . ثم كان عام ١٥٨٨ — وكان فى عامه الأول بعد الأربعين فولى وجهه شطر مورد للمال أكثر حكمة ، فسلك بين العملاء التجاريين للأرمادا العظيمة . ولكن سوء الطالع لاحقه هنا أيضا . فهزمت الأرمادا وفقد سيرفانت مورد رزقه .

ثم اشتغل فى عمل آخر .. فعمل محصل ضرائب فى غرناطة ونقص الايراد على عهده نقصا خطيرا سواء لعدم أمانته أو اهماله ، فقبض عليه وحكم عليه بالسجن فترة من الزمان . فلما أطلق سراحه عاد الى الأدب يتعيش به ، وصار من مرتزقة الشعارير ، اذا جاز هذا التعبير . فهو يكتب المقدمات المنظومة تمجيدا لكل أنواع الكتب مهما تختلف موضوعاتها بين ملاحم الشعر وفن التوليد . وكانت هذه المقدمات لا تفضل الكتب عادة . حتى لقد كتب (لوب دى فيجا) وهو من كبار كتاب المسرح (فى خطاب مؤرخ فى الرابع عشر من اغسطس سنة ١٦٠٤) انه ليس فى اسبانيا شاعرا أسوأ من سيرفانت . وان سيرفانت نفسه ليعترف بذلك فيقول فى مرارة ماجنة « أننى أشد دربة على قلب النظم منى على النظم » .

وهكذا بلغ عامه الثامن والخمسين . فتراه رجلا

محطما مسنا خائب الأمل ، ضائقا بالحياة . لقد فشل في كل شيء ، وفشل في الأدب على الأخص . وهو الآن اذا استعرنا قوله « رجل ذو لحية كالفضة ، وان كانت كالذهب منذ أقل من عشرين عاما ، وشارب ضخم وفم صغير» أما الأسنان : فليس له منها غير ستة وهذه حالتها سيئة ، ونظامها أسوأ ، لأن أسنان الفك الأعلى لاتقابل أسنان الفك الأسفل . ويخبرنا أيضا انه ذو بشرة الى البياض أميل منها الى السمرة ، ثقيل الكتفين شيئا ، وليس خفيفا نشيطا في سيره . وهذه صورة لاتأخذ بمجامع القلب صورة رجل مهجور مهمل يبدو انه قد ارتضى ان يسير الى النسيان الأبدي بطيئا متثاقلا.

— ٢ —

وبعدئذ قفز فجأة الى المجد دون ايذان النفير ، كأنه وهج مفاجىء بعثت به الشمس الغاربة . فهذا الرجل الذي كتب في شبابه بضعا من أردأ قصائد العالم قد واتاه الالهام في شيخوخته . فكتب احدى آيات القصص في العالم .

كان سيرفانت يشتغل في كتابه « دون كشوط » منذ امد طويل . وكتب منها فصولا في زنزانة السجن . وقد نسقت حوادثها جميعا وسجلت في حمأة الفقر ولذعة اليأس . وماكانت دون كشوط غير بستان نما من الطين ، وحكمة تمخض عنها الألم . والهام تجلى على روح وادع ، سيم العذاب في جسم مرهف الحس ، واذا كان العالم قد سلك هذه القصة في عداد الآيات العالمية . فما أبعدها مع ذلك عن أن تكون كتابا كاملا لا غبار عليه . فان بها لأخطاء فاضحة ، وانها لمصابة — كما قرر كثير من نقدتها

ـ بذلك الداء الذى منى به الراوية الأسبانى ، أعنى داء الاسهاب الممل . فالكتاب بالغ فى طوله ، بالغ فى تفككه . فأزاهير عقل سيرفانت موزعة لذلك علىأرض بالغة فى السعة . وعليك اذا شئت بلوغ مواطن الجمال المنعزلة هنا وهناك ان تجوب اليها كثيرا من الدروب والمسالك القاتمة الكئيبة ، ولعل هذه القصة (دون كشوط) كان يتضاعف حظها من الجودة ، لو تضاعف حظها من الايجاز .

والقصة الى ذلك مصابة بالكثير من عدم الدقة سواء فى بنائها أو فى أسلوبها . فسيرفانت لم يصحح كتابه قط على ما يظهر . ولم يعد قراءته حينما كتبه ، فما أكثر مابدأ فصلا جديدا بما ينقض ما كتب فى آخر الفصل السابق ، وكان ذات مرة أشبه بما روى عن يوشع فى التوراة من انه وقف مرور الزمن ، وأمر الشمس أن تلزم مكانها لا تتحول عنه أياما عدة . فقد دعى دون كشوط وسانشوبانسا الى منزل الدوق لتناول العشاء اذا أقبل الليل . وبعد أن أصابا من الطعام ألوانا عدة شاركا فى نقاش طويل . جاوز بهما منتصف الليل بوقت طويل لا مراء ، يقول سيرفانت « الآن قرب المساء » .

وفى مكان آخر يذكر لنا سيرفانت ان حمار سانشو قد سرقه لص ثم تجد (المؤلف) لاينى عن وضع سانشو بانسا فوق حماره المسروق سبع مرات على الأقل ، والكتاب ملىء بمثل هذه الزلات .

على اننا سنتناول أخطاء سيرفانت بنفس الروح التى تناولها هو بها ، فهو حين يكتب الجزء الثانى من دون كشوط يلفت القارىء الى أخطاء الجزء الأول ويضحك منها . « يا الهى ما أخرفنا نحن البشر » فهو لايعتذر عن

أخطائه ، ولايسعى الى تصحيحها ولن يفكر فى صقل قصته وتنميقها الا كما فكر فى زخرفة أبطاله وتجميلهم، انها التؤلولة المضحكة فى الوجه ، والسخف الخرف فى العبارة هو ما يجعل الانسان والكتاب حيا محبوبا. وان بعض آيات الفن لتبلغ من الكمال ما يباعد بينها وبين الانسانية ، أما قصة (دون كشوط) فقد بلغت من الايغال فى الانسانية ما باعد بينها وبين الكمال .

ودون كشوط هى قصة مجنون وداع يرويها ساخر وادع. هى سخرية رقيقة بحماقات البشر. وهذا الكتاب على مابه من تهكم ، قد خلا من المرارة . فنحن نضحك كلما رأينا صورة لحماقتنا فى حماقة دون كشوط . وصورة لخشونتنا فى خشونة سانشو بانسا ، ونشعر ذات لحظة اننا أقرب صلة بالفارس الذى أربت شجاعته على بصيرته ، وننحاز فى اللحظة التالية الى التابع الذى اربت بصيرته على شجاعته .. ويحدث كثيرا اذ نرى الأول يحارب بسيفه والثانى يحارب بلسانه ان نقول « انها صورتى الحقة رسمتها عبقرية سيرفانت » فكل منا ـ كما يعرف سيرفانت ـ كان له يوم مع السيف ويوم مع اللسان . وكل آدمى منا هو مزاج من دون كشوط وسانشو بانسا ، ففى أوقات نلوذ بقوة أذرعنا، وفى أوقات أخرى نعتمد على رشاقة ارجلنا وخفتها ونشاطها . ونكون فى لحظة حكماء فى حماقتنا فننحاز الى دون كشوط فنحارب طواحين الهواء ، ونكون فى لحظة أخرى حمقى فى حكمتنا فننحاز الى التابع الذى يجتنب الجهاد منذ الآن « لينام ليلة على سطح الأرض»

وسواء أكنا من الحمقى أو الحكماء فكلنا يسعى على

غير هدى الى نفس الغاية وهى ان نجعل عبء الخيناة أخف وطأة .

- ٣ -

لنقض الآن بضع لحظات مثيرة ، فلنسرج خيلنا ونعتلى صهوتها لنلقى دون كشوط ، ذلك السيد المتجهم الأسارير، حين يأخذ فى غزوته ممتطيا جواده (روزيمانت) ذا الساقين النحيلتين ، يتلمس ان يقوم بمغامرة نبيلة ، ودون كشوط عزب فى الخمسين ، نحيل الجسم ، خوى جيبه من المال ، وزخر عقله بالخيال وكان قد قرأ الكثير من كتب الفروسية ، والتجوال طلبا للمبارزة ، فعزم على ان يكون فارسا مبارزا ، وأحاط جسمه بدرع مزرد هو كجسمه فى قدمه وصدئه . ولبس خوذة قد شدت اليه بعقد كثيرة يستحيل عليه أن يخلعها اذا كان الليل ، وتسلل من منزله ذات صباح مونق مشرق من يوليه « وكان عقله قد خبا » فيحسب طواحين الهواء مرده ، قلاعا ، والمجرمين سادة ، وعاملات المتارب ملكات ، ويحاول رد الظالمين واعانة المظلومين ، فلا يلقى جزاء على عمله غير الركل واللكم ، يلقاهما من الظالمين والمظلومين على السواء .

لكنه ماعظمت متاعبه الا زاد ايغاله فى الجنون فكرس حياته لانقاذ فتاة ريفية لا تحس بوجوده ، ودعاها السيدة « دلشينيا الشقراء » ويقبل ماعرضه خادمه الأمين (سانشو بانسا) من تطوع لخدمته . وكان سانشو بانسا ذا حظ من الخرق والحماقة يعدل حظ سيده من الجنون ... وان كان لسانه يجرى أحيانا بكلمات تزينها حكمة سليمان . امتطى اتانه وتبع سيده الى

مواقع الجنون بشتى الوانه ، وهو يأمل فى دون كشوط أن ينصبه آخر الأمر حاكما على جزيرة .

وكذلك نراهما ذات صباح وقد بلغ منهما العناء والجهد، ولكنهما غيرمكتئبين ، وقد تأهبا لخوض مغامرة من تلك المغامرات التى عرفا بها وصارت علما عليهما ، ويرفع دون كشوط عينيه فيرى... اثنى عشر رجلا تقريبا مترجلين وكأنهم حبات سبحة ربطت فى سلسلة من الحديد وهذه السلسلة تلتف بأعناقهم واما أيديهم فمقيدة بالأصفاد . وكان يحرسهم فارسان . وفى يد الراكبين بنادق ذات قداحات ، وفى يد الراجلين رماح وسيوف ، ولايكاد يراهما سانشو حتى يقول « هذا عقد من الرقيق المسخرين ، قوم سخرهم الملك تسخيرا فى الأعمال الشاقة » فيقول دون كشوط «ماذا ؟ رجال مسخرون ؟ أيستطيع الملك ان يسخر أى انسان ؟ » فيجيبه سانشو « لم أقل ذلك ، وانما قلت انهم قوم يعاقبون على جرائمهم بأن يسخروا فى خدمة الملك تسخيرا » فيجيب دون كشوط « لكن هؤلاء الناس على اية حال ، وان كان يرافقهم حرس فهم ذاهبون كرها لاطوعا ، فانكان الأمركذلك فهذه رسالتي محددة المعالم . القضاء على العنف والتعذيب وانقاذ المعذبينوالمحتاجين» .

وكانت سلسلة الرقيق قد وصلت وقتئذ فسأل دون كشوط أول الرقيق عن جريرته التى ساقته الىالأشغال الشاقة . فقال الرقيق « انى أحب » . فسأله دون كشوط « وكيف كان ذلك ؟ »

« أصبت بهوى سلة من الكتان وكان غراما جارفا ، حتى لقد احتضنتها .. وحاولت أن أفر بها » وسأل دون كشوط رقيقا آخر ماسبب القبض عليه . فأجاب

السجين «كان السبب انى لم أمتلك عشر ديكات ، ولو كما يجرالكلب». ويذكر سجين ثالث لدون كشوط « انه وشحذت به قريحة المحامى . ولو كان ذلك لكنت اليوم فى وسط سوق (طليطله) لا فى آخر السلسلة مجرورا كما يجر الكلب » . ويذكر سجين ثالث لدون كشوط انه معاقب على جرم خطير ، جرم لايغتفر. فقد أعترف بأنه سارق ، ولو انه استطاع أن يمسك لسانه ، واحسرتاه، لكان الآن رجلا حرا » .

ويستمع دون كشوط صابرا الى قصة كل سجين. ثم يقرر ان هؤلاء الناس وان كانوا مجرمين فى رأى القانون ، فهم كذلك قوم نزلت بهم محنة ، وان ما أصابهم ليرجع الى حقيقة عرضية ، هى انهم قد قبض عليهم . فأعلن اليهم ان من واجباته بوصفه فارسا جوالا ان يعطف على المحتاجين ويبذل لهم العون، ولكن دون كشوط قرن قوله الأحمق بالعمل الجنوني ، فشن هجوما مفاجئا على الحراس ، فأذهلتهم المفاجأة ، وفروا مذعورين ، واتيح للسجناء أن يتحرروا من أصفادهم.

ويزدهى هذا النصر دون كشوط فيأمر الرقيق الذين انقذهم بأن يرفعوا الأصفاد التىحررهم منها، ويحملوها الى (حبيبته دلشينيا الشقراء) ذكرى للمعركة التى انتصر فيها ، ويرد السجناء الفارون على ذلك الرجاء العجيب بوابل من الحجارة يمطرون به دون كشوط وسانشو بانسا . ثم يختفي الأرقاء كل فى ناحية . ويظل الأتان والحصان ، وسانشو ودون كشوط وحدهم.

ويقف الأتان يتفكر مطرق الرأس ، تهتز أذناه بين الآن والآخر، فهو يظن ان عاصفة الحجارة لم تقف بعد، بل ان صفيرها لايزال يتجاوب حوله. ويستلقي الحصان

الى جانب صاحبه الذى وقع عنه هو الآخر بفعل قذيفة حجرية ، اما سانشو فقد وقف فى مسكنة وخوف من رصاص الاخوان المقدسين (الشرطة الأسبانية) واستلقى دون كشوط بطوله على الأرض محسورا اذ كان المسيئون اليه هم من قدم اليهم كل ذلك الجميل .

ويضطر دون كشوط وسانشو بانسا الى الاختفاء آخر الأمر فى الجبال ليتقوا غضب الاخوان المقدسين .

وهنا يقترح الفارس المقطب الجبين ان يؤدى الكفارة كما كان يؤديها فرسان الزمن الخالى . فيسأله سانشو ـ وعم تكفر؟ ـ فيجيبه دون كشوط « لا أكفر عن شىء محدد بالذات » ان أى انسان يستطيع الحماقة لسبب معقول والمهارة ان تكون أحمق لغير ماسبب على الاطلاق . ففرسان الزمن الخالى كانوا يعذبون أنفسهم لأن عشيقاتهم غير مخلصات . أما دون كشوط فيحب تعذيب نفسه لأنه يستمرىء مذاق الألم . وهكذا يخلع ملابسه ويأخذ فى ضرب رأسه فى الصخور ويهيب بسانشو أن يراقب جيدا تكفيره الأليم وأن يبلغ نبأه لدولشينيا الشقراء .

وما يفرغ من هذه الكفارة حتى ينخرط فى سلسلة اخرى من المغامرات المجنونة وتبلغ هذه السلسلة ذروتها فى مبارزة مع زق خمر حسبه دون كشوط ماردا مسحورا . وكذلك يسير من جنون الى جنون ، حتى يقابله اخيرا فى وسط مغامراته المضحكة قسبس قريته، الذى كان يبحث عن ذلك المجنون الحبيب . فيحمله الى قريته فى قفص . فاذا أحضر هو وتابعه الى القرية هرعت زوجة سانشو بانسا الى زوجها وعلى شفتيها سؤال متلهف « هل حمارك بخير ؟ » فيجيبها سانشو

بانسا . «هو خير مني» فتدمدم في حماسة «حمداً لله».
وهكذا ينتهي الجزء الأول .

- ٤ -

قدم سيرفانت للعالم ذلك الكتاب المرح (الجزء الأول من دون كشوط عام ١٦٠٥) ولكن حياته الخاصة كانت توغل في المرارة - واذا كان الفقر لما يزل يطارده ، فعليه الآن كما كان عليه من قبل أن يعيش بين حثالة البشر. فأقام مع ابنته وأخته في شقة في منزل سيىء السمعة . حتى لقد أومىء الى انه قد شجع ابنته على احتراف (أقدم مهنة في العالم) وانه كان يعيش مما تتكسبه . ثم أصابه في السابع والعشرين من شهر يونية ١٦٠٥ خطب هو أعمق خطوبه . فقد وجد في غرفة سيرفانت وأهله نبيل رفيع المقام مقتولا ، فقبض على سيرفانت بتهمة القتل . ولكن ثبتت براءته لحسن الحظ .

وحينما كان العالم في الأعوام العشرة التالية غارقا في ضحكه من دون كشوط كان سيرفانت لايكتب الا نادرا. فقدكتب عددا من القصائد المتوسطة فيقيمتها ، وحفنة من المسرحيات لم يكتب لها رؤية المسرح قط ، ومجموعة لابأس بها من القصص القصيرة . هذا كل نتاجه الأدبي في حقبة كاملة ، مضافا اليه الجزء الثاني من قصته العظيمة .

- ٥ -

والجزء الثاني من دون‌كشوط أطرف من الجزء الأول نفسه من بعض الوجوه . فهو مزاج من اللغو المخرف

والحكمة اليقظى . فدون كشوط يتكلم أحيانا كالمجنون ويتكلم فى أحيان أخرى كما يتكلم الحكيم . وبفضل عبقرية سيرفانت تمخضت هذه الأشتات عن كائن حى متسق.

على ان بطل الجزء الثاني ليس (دون كشوط) بل (سانشو بانسا) لقد صار عقل هذا الرجل أشد خرفا من جنون سيده. انه لايزال مولعا بمعانقة طعامه وتقبيل زجاجته . ولكنه لم يعد الأحمق الخلى البال الذى رأيناه فى الجزء الأول . انه الآن أبله طموح ، حريص على أن يثرى ، وان يعد زيجة فاخرة لابنته فمن الخطر على شابة حسناء ان تظل وحيدة . فالزواج السيىء أسلم للفتاة من الاختلاط غير المشروع .

لذلك فهو لاينى عن مطالبة (دون كشوط) بالجزيرة التى وعده بها جزاء له على خدماته . انه واثق بقدرته على ان يكون حاكما كفؤا ، لأنه كما يقول عن نفسه (اعرف قليلا عن كل شيء ، وقليلا قيما عن أى شيء) .

ويبدو فى الواقع ان سانشوبانسا قد التحق بالمدرسة بين بداية الكتاب ونهايته فهو فى الجزء الأول من الكتاب جاهل بقدر ما هو مخلص . ولكنه فى الجزء الثانى يغدو وطابا ينضح بالأمثال . فتنطلق الأمثال من فمه بالمئات فى كل مناسبة . وهى زاخرة بالايقاع اللفظى فقيرة جدا فى المعنى .

وكذلك ينطلق التابع وسيده فى مهمتهما الحماسية الهاذرة . وان دون كشوط لعلى يقين من ان ساحرا يحول بينه وبين مغامراته ، وينجح سانشو بانسا فى اقناعه كذلك بأن السيدة دلشينيا نفسها قد سحرت . فبعد أن كانت آنسة جميلة ، تحولت الى جارية ريفية

دميمة ، فقرر دون كشوط أن يفك سحر محبوبته . وسمع من أحد الماجنين الذين يحاولون الهزء به ان المسئول عن كارثة دلشينيا هو سانشو بانسا ، ولن تتحرر دلشينيا اذن من أسر السحر حتى يعاقب سانشو بانسا نفسه بثلاثة آلاف وثلثمائة جلدة على عجزه الشجاع. ويشكو سانشو قائلا « لا أرى علاقة بين الضربات على عجزى وسعادة ليدى دلشينيا » . فاذا عرض عليه سيده مبلغا طيبا من المال لقاء هذا الجلد ، غير رأيه ووافق قائلا «حسنا جدا ، سأفعل ماتطلب الى وارفع السحر عن السيدة». وهكذا يصحب دون كشوط الى الغابة ، ويخلع ملابسه ويخفى نفسه وراء غيضة من الشجيرات . ويطلق مع كل جلدة آهة رهيبة. ويقف دون كشوط على الجانب الآخر من الغابة لايستطيع ان يشهد الجلد وتقشعر أوصاله رحمة بتابعه الأمين الذى ينزل بنفسه ذلك العذاب ـ فاذا فرغ سانشو من الجلد أمطرنا وابلا من الأمثال ثم انطلقا الى المغامرة التالية .

هذه المغامرة تذهب بهما الى قلعة أحد الأمراء وكان الأمير قد سمع بمهازلهما فأغراها بسلسلة من المهازل أشد هزءا ، ولعل هذا الرجل فيما يقول سيرفانت أشد أشخاص القصة غفلة لأنه (يجد كل هذه اللذة فى الهزء بغيره من الغافلين) فيحرض كشوط على محاربة القطط المسحورة ، ويورطه فى غرام ساخر مع احدى وصيفات الدوقة ويعرضه للاهانات والصفعات من كل جانب . وبينا هو يمتع دون كشوط على هذا النحو ، اذ يرفع سانشو بانسا الى منصب حاكم على جزيرة باراتاريا . وهذه الجزيرة ليست فى الواقع غير قرية على الأرض لا فى البحر. ولكن السذاجة قد بلغت بسانشو بانسا

لى حيث لايميز بين الجزيرة وغير الجزيرة . وتقدم اليه ى سخرية فخمة تنفخ فى أوداجه عظمة الملك ، وتنهال عليه الصحاف زاخرة بأغلى الأطعمـة ، متبـلة بأشهى لتوابل ، والى جانبها دنان الخمر من نبيذ عطر ، فتصرخ حشاؤه فى طلب الطعام . ولـكن طبيب القصر يحذره من أن يمس شيئا مما وضع على المائدة . ففى الجزيرة جواسيس قد عقـدوا العزم على دس السم فى طعام الحاكم وشرابه .

ما أبلغهـا من تعاسـة ياسانشو. انه على عجزه عن الاستمتاع بملذات منصبه الرفيع ، مضطر أن ينهض بمسئوليات هـذا المنصب . فهم يجلسونه على منصة القضاء ليقضى فى المنازعات بين رعاياه . وعلى حين بغتة يصير رغم كل جهالته آية فى العدل ، ويظل عشرة أيام يحكم الجزيرة بقلب عامر وجـوف خاو . ثم يقرر أن يتنحى عن مجده الملكى . يفعل ذلك راضى النفس خاصة وانه قـد سمع أن الجزيرة مهـددة بالغزو فيقول ان صعلوكا حيا لخير من ملك ميت . ولا يطلب لقاء خدماته فى حكم الجزيرة غير حفنة من الشوفان طعاما لأتانه ، ونصف قطعة من الجبن ورغيف طعاما له هو .

ويعود الى دون كشوط فيعرض خدماته فى مغامرات سيده المقبلة ، ولكن مغامرات المجنون الجديدة موشكة على النهاية . فقد حاول أصدقاؤه بكل ما استطاعوا من وسيلة ان يبرئوه من جنونه . واهتدوا أخيرا الى خطة عملية ، فقد أغروه بمبارزة صمويل كاراسكو ، وهو من أصدقائه القدماء ، تنكر فى شخصية أخرى ، واستخفى فى زى فارس جوال وقيل لدون كشوط أن الفـارس المغلوب عقابه ان يخضـع لارادة الغالب . فلمـا انتصر

كاراسكو بسهولة على دون كشوط ، امره بالعودة الى منزله ، والا يعرض نفسه بعدها لأخطار الفروسية ابدا.
ولكن الشارد دون كشوط لايرعوى عن غيه . فهو بعد اذ هجر المغامرة ، قرر أن يتخذ له مهنة تعدلها جنونا. هى مهنة الراعى العاشق . ولكن مرضا عضالا يصيبه فينجيه من جنون نهائى . فاذا ما اقترب دون كشوط من يومه الأخير عاد اليه عقله . (انى أنعم الآن بعقل حر نافذ لا تحجبه سحابة الجهل التي أنشأتها القراءة المستمرة والانكباب على كتب الفروسية . لقد كنت فى حياتى غافلا جهد الغفلة . ولكنى سأحاول ان أكون فى مماتى ادنى الى العقل شيئا) .

— ٦ —

لقد بدأ سيرفانت الجزء الثانى من دون كشوط فى كسل وتردد . ولعله ماكان ليكمله لولا ان نافسه مزور محتال ، ذلك المحتال الذى كان يتخذ لنفسه اسما مستعارا هو (افلاندا) وقد أصدر هذا المحتال تتمة مزورة لدون كشوط . فاستشاط سيرفانت غضبا من هذه الجرأة ، وسارع بانجاز التتمة الصحيحة وقدمها للعالم سنة ١٦١٥ .

وحسنا فعل . لأن العالم التالى قد طوى حياته . فيالهما من فيلسوفين مجنونين حبيبين الى النفس ، دون كشوط وسيرفانت ، قد كتبت لكليهما نعمة العيش فى غفلة ، والموت فى حكمة .

دانيــال ديفــو

(١٦٦١ - ١٧٣١)

- ١ -

هـذا الرجل كما قال احـد معاصريه - كانت أمه الزئبق ، وكان أبوه الشـــيطان . والواقع ان مؤلف (روبنسن كروزو) كان من أشد رجال عصره قلقا . ولم تكن الملائكة تبارك هذا القلق دائما .

كان طوال حياته يحاول خدمة سيدين «الله والذهب» وبهذا الولاء الموزع لم يستطع ان يخدم اى السيدين فى اخلاص كاف . فهو قد اعد للعمل فى الكنيسة لـكنه اشتغل بالتجارة . فكان يبيع الغزل والجوارب والنبيذ والمحار والآجر والبلاط والمنازل والأفـكار .

وانغمس فى السياســة ووهنت قواه فى السجن . وأوقف فى مكان التشهير . وكان يتردد على منازل أهل النفوذ . وكان يدلف اليها من الباب الخلفى عادة .. وكان يعاشر الثوار والمنبوذين . وكان يتحدى الأمراء بوصفه أحد المنشقين على الـكنيسة ويخدمهم بوصفه جاسوسا . وقد أصاب الثراء عدة مرات ومات مختبئا . هاربا من دائنيه . وألف أكثر من ثلثمائة كتاب .. ولا يقرأ منها الآن غير ثلاثة فقط . روبنسن كروزو . ومول فلاندرس وصحيفة عام الطاعون
(Ajoureal of the Plague Year)

كان يدخل فى تركيبه كل نشاط انسانى تقريبا ، طيبا كان أو شريرا . وكان كالأرض الحية تعمرها الريح والصخور والأنهار والظلال والأزهار . وتعلوها شمس العبقرية التى تحيل المنظر المألوف الشتيت الألوان الى جمال رائع .

لكن لننظر عن كثب الى هذه الشخصية الشتيتة الألوان المسماة دانيال ديفو .

كان فى صباه يدعى (دانيال فو) ابن بائع الشمع (جيمس فو) ولم يوقع (د. فو) الا بعد أن تجاوزالأربعين ثم وقع ديفو ، ثم دانيال ديفو. واخيرا شاء أن يلائم بين مركزه واسمه. فابتاع شعارا للأسرة . واخترع سلسلة من النسب تؤدى به الى أصل نبيل .

لكن أباه لم يكن فى شك من انه براء من أية نسبة الى النبلاء . فربى أولاده وفق التقاليد الصحيحة للطبقة الوسطى الانجليزية . وكان مشقا على كنيسة انجلترا . فأوحى الى اسرته بروح البرم ـ ودرب دانيال منذ نعومة أظفاره على أن يكون أفاقا لايهدأ ، وناقدا للحياة دقيق الملاحظة .

لم يكد دانيال يشب عن طفولته حتى حلت بلندن كارثتان مروعتان . هما الطاعون الكبير ١٦٦٥ والحريق الكبير ١٦٦٦ وخرجت أسرة فو من هاتين الكارثتين بدون ان تصاب بسوء . ولكنها أصيبت بالذعر .

(ان الحياة فرار دائم من الخطر) ومحاولة مستمرة لتحصين النفس من الخطر.. خطر الموت ، وخطرالفقر، فالطاعون والنار قد جلبا ذلك الجوع الذى قتل آلاف الأسر. فيجب على آل فو أن يحرصوا على ألا تصيبهم

مثل هذه المأساة « دافع العوز يابنى عن نفسك ، وحاربه طول حياتك » .

لقد حاربه جيمس فو نفسه ونجح فى كفاحه نجاحا لابأس به . فأبدل ببيع الشمع بيع اللحم فلئن تخدم اللحم لأجدى عليك من أن تجلب النور . وتسمح له حاله الآن بأن يفكر فى تعليم أبنائه تعليما حسنا. فيبعث بدانيال الى (أكاديمية) خاصة قائلا أريدك أن تكون قسيسا والا فكن تاجرا . ولكنى أريدك على أى حال ان تكون سيدا ناجحا .

فقرر دانيال أن يحترف التجارة عملا بنصيحة أبيه. فان طريق النجاح غاية فى الوعورة على قسيس بالكنيسة المنشقة . وهكذا نجده فى سن العشرين يزور حوانيت لندن وسيطا فى بيع الجوارب . وكان شابا نشيطا مليئا بالأفكار خاويا من المال . وكان على هامش نشاطه يتجر بالمشروبات والطباق والأقمشة ، والمحار ، والفلايين ، والسعوط. فكل شيء كان يدير طاحون مطامحه المالية.

كان شابا ذا مواهب قوية ، وأفكار ايجابية . لكنه كان قلما يعمل وفق افكاره . فانه لينصح بعدم المبادرة بالزواج . ويتزوج وهو بعد فى الرابعة والعشرين. ولكن هذه الخطوة كانت الى المهارة أقرب منها الى الاندفاع . فقد منحته زوجه بائنة قدرها ٣٧٠٠ جنيه . وانه لينصح أصدقاءه بالابتعاد عن السياسة وينغمس هو فى تيارها فيشترك فى ثورة (ننموث) التى نشبت ضد العرش وكاد يدفع حياته ثمنا لحماقته .

وشفى من ثورته زمنا لكنه لم يشف من عدم مبالاته. فقد أسرف فى توظيف أمواله فى سفن التجارة وابتاع

منزلا بالمدينـــة ومنزلا بالريف وجازف فى كل مشروع جرىء مر بخاطره . وان الاسراف فى التجارة لا خطر من الاقلال منها . فهو يجد نفســـه فى أوائل الحلقـــة الرابعة من عمره وقد أفلس واستدان مبلغ ١٧٠٠ جنيه.

ثم تأتى فترة من القضـــايا ، والقضـــايا المقابلة ، واتهـــامات بالحنث باليمين وابتزاز والتزوير . وبذل مجهودا يائسا لأن يعوض بقلمه ماحاق به من خســـائر، فأخذ يتجر ببضاعة جديدة ، ببضاعة الفكر. فكتب عددا من القصائد والنشرات ووجد أنها دعامة ضعيفة لرجل تتكاثر أسرته . لذا فهو يعود الى التجارة ويدير نصيبا حكوميا ويشتغل محاسبا فى ادارة الدخل ويصـــــبح مستشارا قديرا لنظام العملة البريطانى . لكنه وجد ان رقيه فى وظائف الحكومة يسير فى بطء لايساير طموحه الذى لا يهدأ . فكان تواقا الى أن يشتغل لحســـــابه الخاص . فجمع من جديد بضع مئات من الجنيهات ، فانه أملس اللسان ناعمه كما هو ســــيال القلم حاضر العبارة . وافتتح مصنعا للآجر والبلاط ووجد ان نجاحه قد فاق أحلامه ، فاشترى عربة ومنزلا جديدا . وما مضت أعوام قليلة حتى كان قد أدى معظم ديونه .

وخير ما فى الأمر انه وجد وقتا للكتابة فهو فى سالف عهده قد حمل نفسه على الاشتغال بالأدب كما تحمل النفس على حرفة مؤلمة . أما الآن فهو يعود اليه بوصفه ملهاة ممتعــــــة . فكتب عشرات من النشرات فى كل الموضوعات مهما تنوعت . فتناول انشاء الطرق وتحرير المرأة والنعى على قوانين انجلترا الظالمة فـــكلها قوانين أشبه بعش العنكبوت الذى يمسك بصغار الذباب بينما تقتحمه كبار الحشرات ، كما كتب قصيدة تهكمية عنوانها

« الانجليزى الأصيل المولد » The True Born English man
وهــو يندد فيها بقســـوة البريطانيين على المهاجرين الأجانب والهولنديين منهم خاصة . وكان من أثر هذه القصيدة أن كسب ديفو قـــدرا من الشهره . وليس هذا فحسب بل وكسب كذلك موده الملك . فقد كان وليم الثالث نفسه هولنديا فجـــازاه « أعظم الأمراء وأحسنهـــم » كما يقول ديفو « بما جـاوز طاقته على الاستحقاق » فقد أصبح ابن تاجر الشمع فى عامه الأول بعد الأربعين مستشـــارا للملك . وكان ديفو فخورا ، وحق له أن يفخر ، بما أحرزه . ولكنه لم يكن يدرى شيئا عن تلك المزالق التى تنتظره فى قابل أيامه .

— ٣ —

كانت متاعب ديفو ترجع الى حـــد ما الى تناقض عجيب فى خلقه . فهو ابن تاجر منشق ، وهو خليـــط متناقض من الطموح المادى والتماسك الخلقى ، وكان طموحه يسيطر أحيانا على خلقه . ولكن خلقه كان فى احيان أخرى يسيطر على طموحه . وهو الا يكن دائمـــا فوق مستوى شبه النفاق فى معاملة شركائه فى التجارة فهو لم ينزل قط الى مستوى النفاق بعقيدته المتطهرة . فهذه العقيدة المتطهرة العنيدة طالما أغرته بالسعى الى الكوارث وسط مجالى الرخاء . فهو فى ميدان السياسة كثيرا ما باع قلمه . لكنه فى ميدان الدين لم يبع ضميره قط . بل انه على نقيض ذلك قد حافظ على حماسته فى دفاعه الباسل عن قضية المنشقين المرفضة فى وجه برلمان معارض . وقد بلغت احدى نشراته فى الدفاع عن المنشقين من الايلام بالبرلمان الرجعى حد الأمر

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

بالقبض عليه فاختبأ ديفو ومنحت جائزة قدرها خمسون جنيها لمن يعثر عليه « هو رجل متوسط الحجم فى نحو الأربعين أسمر اللون وشعره داكن لكنه يرتدى شعرا مستعارا ، ذو أنف روماني ودقن مدببة وعينان رومادیتان وثؤلولة كبيرة قرب فمه » .

وعثر عليه وفى التاسع من يوليه عام ١٧٠٣ حكم عليه بأن يقف ثلاث مرات فى مكان التشهير وأن يؤدى غرامة قدرها ٣٠٠ مارك وأن يرسف فى السجن ماطاب للملكة آن أن ترسف . فالملك الذى كان يرعى ديفو قد مات اذ سقط عن صهوة جواده .

ولكن هذا التشهير العلنى الذى قصد به اذلال ديفو قد استحال الى نصر . فالدهماء بدلا من أن يقذفوه بالبيض الفاسد أو السمك النتن كما جرت العادة كانوا يحيونه بالهتاف والصفيق . لأنه رجل جرؤ على ان يقول قالتة ، فكانت رحلته من مكان التشهير الى السجن أشبه بموكب الفاتحين الفزاة . ولكن باب السجن لم يكد يوصد عليه حتى نسيه المعجبون . وظل عدة شهور سجين زنزانته ماطاب للملكة آن . كانت تبغض المنشقين .

وكان مصنع الآجر الذى يملكه يدب اليه الخراب وكانت أسرته تشرف على الموت جوعا ولولا دهاء الوزير الجديد روبرت هارلى لجاز ان يظل فى السجن طول حياته . وكان هذا السياسى الكبير يكره مبادىء ديفو الدينية على انه كان على حظ من الدهاء مكنه من استغلال مبادىء ديفو السياسية ، او ان شئت الدقة فقل تحرر ديفو من المبادىء السياسية . فقد لاحظ ان قلم هذا الكاتب السلس يستطيع اللعب البهلوانى على حبل السياسة فهو يمدح الأحرار آنا ثم يمدح المحافظين آنا .

وكان هارلى نفسه من المحافظين لكنه يتوق الى كسب

مودة المعتدلين من الأحرار فساوم ديفو ... ووهبه حريته فى مقابل خدماته الأدبية .

وقبل ديفو ما عرض عليه وأصبح لسان الحكومة . فانشأ جريدة اسبوعية (The Review) بمساعدة مالية من راعيه ، واكد ديفو انها مجلة متحررة من التعصب والحزبية ولكن القراء كانوا أعلم ببواطن الأمور فالألفاظ فى الريفيو كانت لديفو ولكن الصوت كان لهارلى .

ومن الانصاف ان نقول انه لم يجد مشقة كبيرة فى تقليد صوت هارلى . فهارلى كان من أحرار حزب المحافظين . بينما كان ديفو من أحرار حزب الأحرار. والحرية مهما تتخذ من اسماء ومعسكرات فلها نفس اللون فى كل مكان . ان ديفو يشعر ـ ولعله على حق ـ انه يخدم قضية بلاده اذ يحاول جمع المعتدلين فى الحزبين على التفاهم .

وكان معنى هذا ان يبذل ديفو جهدا شاقا ويلقى كثيرا من العنت وقليلا من الأجر . فلقد كان يكتب كل كلمة فى كل عدد من أعداد المجلة لأن هارلى لايأتمن انسانا غيره على عمل بهذا القدر من الدقة . ولكن ديفو رغم دماثته ودقته قد واظب على كسب عداوة المتطرفين فى كلا المعسكرين اذ كانت حياته الصحفية حربا دائمة على القدح والتنديد والاتهام والتهديد .. وحربا على الفقر ، فان هارلى ليدفع وعودا خلابة لا أجرا محددا.

وطالما اذل ديفو وحمله على استجداء الأجر الذى استحق الأداء من زمن طويل « ان على الآن واحسرتاه ان أطعم أسرة من سبعة أطفال » وكان هم هارلى أن يحتفظ دائما بولاء عبده وكان سبيله الى ذلك الا يدع

العبد يطمئن الى المستقبل .

وتحقيقا لهذه الغاية ظل هارلى يزيد كل يوم توريطا لديفو فى حبـــائل منظمات الحكومة السرية ، فأحاله باختصار الى جاسوس ، أو وكيل سرى كما كان يسميه تجملا ، وكانت مهمة ديفو بوصـــفه وكيلا للحكومة أن يتنقل فى البلاد متخذا له اسما مستعارا وأن يتحدث الى النـــاس ويتحسس أعمالهم ويتعرف الى رأيهم فى ملـــكتهم ووزيرها .

وفى صيف ١٧٠٤ بدأ ديفو رحلته التجسسية فوجد هذه الرحلة حبيبة الى نفسه كما اعترف بذلك . فهو طلعة بطبعه يحب صحبةالناس وملاحظة عاداتهم ودراسة شخصياتهم وتحليل أفكارهم . فجعل من نفسه مشيرا صديقا للناس ، لا جاسوسا فضوليا عليهم ، وليس هذا السبيل أقل تحقيقا لما رمت اليه الحكومة . ذلك ان ديفو قد نجح فى أن يستميل نقاد العرش بدلا من ان يحاول دمغهم بالجريمة .

وكانت خدماته قيمة بشكل أخص فى دعم الوحدة بين انجلترا واسكتلندا لقد حياه الناس بصيب من الحجارة حين وصل اسكتلندا أول مرة وهاجم منزله فى تلك الليلة جمهور ثائر من أعداء الانجليز هاتفا (يسقط الجواسيس لا وحدة مع انجلترا) وهرب ديفو من باب خلفى فنجا بأعجوبة . ولكنه استطاع تدريجا أن يكسب آذان قادة اسكتلندا وقلوبهم ، واستطاع آخر الأمر أن يكتب الى هارلى " انى الآن مرتاح الى رؤية ثمرة كل ما بذلت من الكد والكفاح فى مواجهة الدهماء .. وهذه الثمرة هى الاتحاد .. وانى أكتب اليك ذلك بينما مدافع القلعـــة تقصف احتفالا بالاتحاد .. ولعلى أستطيع أن أقول لك

دعنى الآن أرحل من هنا فقد رأت عيناى نهاية الشقاق).

ولكن هارلى يرغب عن السماح له بالرحيل . فديفو رقيق قيم جدا بحيث لايصـــح تحريره بهذه السرعة (فأبقى يده على المحراث وأطعمه آمالا جوفاء) فبعث الى ديفو بصك بمبلغ مائة جنيه وهو مبلغ وفى باطعام أسرته ولم يصلح دعامة لأى مشروع مادى . واستمر ديفو يخدم سيده ويرسم خطة لمستقبل اعمر بالرجاء يجلب حياة أسعد ، ليس لشخصه وكفى بل للعالم أجمع .

استمر فى عمله وكيل مخابرات لهارلى ولـكنه استعان على العيش ببيع فرش الموائد فى اسكتلندا وكتابة عدة نشرات لاصلاح المجتمع . فهو يدعو سنة ١٧٠٩ الى انشاء عصبة أمم ومحكمة عالمية وكان الملك لويس الرابع عشر قد أصيب لتوه بهزيمة نـكراء على أيدى الجيش البريطانى فكتب ديفو يقول (ان فى اسـتطاعة انجلترا وحلفائها الآن أن تمنع الى الأبد أى حرب جـــديدة فى أوروبا ويمكنها أن تقيم من نفسها حكما فى كل المنازعات والخلافات التى يمكن أن تنشأ فى أوروبا سواء بين مملكة ومملكة أو بين ملك ورعيته . فهى تستطيع أن تجعل من مؤتمر الحلفاء محكمة استئناف يلجأ اليها كل من أوذى أو اضطهد .. فتحمى الدول الصغيرة من ارهاب جاراتها القوية فلا يفتات قوى على ضعيف بعد اليوم ولا يبتلع القادر العاجز ولو شاء هـذا الاتحاد (الذى يتكون من أمم تكره العدوان) لاستطاع منع نشـــوب الحرب حتى ينهى العالم ..) غير ان أنصار العزلة فى القرن الثامن عشر لم يعيروا ديفو أذنا واعية ، فـكان شأنهم معه كشأن أنصار ودرو ولسون .

وتمضي عدة سنين لا نعرف فيها مكان ديفو . لقد دارت دائرة الحظ السياسى على هارلى فنزل من علياء سلطانه الى غيابة السجن . وأخذ معه عددا من أنصاره منهم ديفو . وكانت هذه الفترة الأخيرة فى السجن شفاء لديفو من غرام السياسة « واذا قال الواعظ ان الأمر كله لايعدو الزهو والحقد فانى أرى قوله يصدق على هؤلاء الساسة . فكل شيء لديهم تظاهر ونفاق كريه ، سواء فى ذلك كل حزب وكل عصر وكل عهد . فهم ان كانوا خارج الحكم كافحوا لتوليه ، فان ولوه كافحوا لاستبقائه فى أيديهم . ولم نكد نسمع بحزب أو بشخص الا وقد قارف - بقدر يزيد أو ينقص - جريمة تغليب مصلحته على مبدئه » .

لقد تورط ديفو شخصيا فى السياسة ، فلم يفد مصالحه ولا مبادئه . وهاهوذا مريض الجسم متقزز العقل ، قد فصم صلته أخيرا بهذه العبودية السياسية واختفى فى الضباب .

ثم يعاود الظهور وقد شارف الستين ، فيطرق عظماء لندن رثاء له ورحمة ما أشنعه من سقوط ! لقد صار مستشار الأمراء راوية قصص للطاهيات وهان أمر مؤلف الأبحاث السياسية فصار يروى مغامرات بحار تحطمت سفينته . ولم تدرك غير قلة ضئيلة من معاصريه ان دانيال ديفو حين هان فألف (روبنسن كروزو) قد سما الي المجد الخالد .

لقد اهتدى ديفو الى نفسه آخر الامر فهو لم يخلق تاجرا ولا كاتب نشرات ولا سياسيا بل خلق قصاصا . وكانت حياته كلها بحثا عن هـــذه الحقيقة . ولم يكن انتحاله تلك الشخصيات المتناقضة ، شخصية الصانع والتاجر والمنشق والمحافظ والثائر والرقيب والجاسوس، لم تكن هذه غير محاولة لاشعورية لان يفهم بواطن ألوان النشاط المتنوعة فى العرض الانسانى (فانك ان شئت وصف خطيئة أخيك فعليك أن تتقمص اهابه) لقد انتحل شخصيات النـــاس من شتى الألوان وهو الآن يفسر الانسان . فكانت الحقبة الأخيرة من حياته نشاطا فى الخلق مدهشا وكأن وهن جسمه قد زاد من نشاط عقله فصار خياله يشكل القصة بعد القصة فألف ملك القراصنة ، ومغامرات دنكان كامبل ، وذكريات فارس، وكابتن سنجلتن ، والكولونيل جاك ، ومول فلاندرز ، وصحيفة عام الوباء ، وتاريخ الشيطان . فكيف استطاع رجل فى هذه السن المتقدمة أن ينتج كتبا جديدة بهذه الكثرة ؟ كيف يجد مع ذلك فسحة من الوقت لمغامراته التجارية ؟ على أن ديفو وان شفى من داء السياسة فانه لم يشف قط من عدم المبالاة . فظل حتى نهاية حياته يواصل العدو وراء ذلك الوعاء الذهبى فى نهـــاية قوس قزح . ومهما بلغ ربحه من قصصـــه فقـــد خسره فى الاستثمار المهمل .. وورط معه فى هـــذه الاستثمارات غير الحكيمة طائفـــة من أقرب صحابه وأقربائه وكانت منهم ابنته (هانا) وشاء آخر الأمر أن يعوض خسائره فى التجارة فألف (المرشد الكامل للنجاح فى الأعمال) ويهدف هذا المرشد ـ كما قال ديفو ـ الى تعليم تجارنا والشباب

البادئين منهم خاصـــة فقد كان ديفو بارعا فى ازجاء النصح .. ولم يكن بارعا فى اتباعه فنحن نراه فى عامه الخامس والستين وقد تورط فى قضية اتهم فيهـــا بالاحتيال وكان الاتهام ظالما على الأرجح .

وبعد أربع سنين لا نعثر له على أثر . فقد اختبأ من دائنيه وليس من دليل على مكانه غير خطاب وصل الى صهره (هنرى بيكر) فى ١٢ اغسطس سنة ١٧٣٠ ممهور بتوقيع د. ف. التعس . أما تاريخه فهو (نحو ميلين من جرنتش كنت) يتكلم الخطاب عن محنة رجل مسن مثقل بوطأة من الأسى لا تحتمل ، مهمل من أسرته ، كسير القلب اذ عامله ابنه معاملة خلت من الانسانية (والأغلب ان ابنه قد رفض اعطاءه المال اللازم لمضاربة طائشـــة جديدة) « وقد ألح عليه مرض ثقيل جدا فهو طائر اللب اذ يحرم العزاء فى ضمة أخيرة من ابنته وزوجهـــا فقد بات لايحتمل مجرد الحضور لرؤيتهما والعودة فى الحال» وأما ذهابهما لرؤيته فأمر مستحيل لأن مخبأه يجب أن يظل سرا لايعلمه أحد حتى أعز الناس عليه ثم يختتم الكتاب فى نغم مستسلم (انى لشديد القرب من خاتمة مطافى أسير مسرعا الى حيث يستريح أهل العناء ويقصر أهل الشر عن آذاهم ، فمهما يكن الطريق وعرا واليوم عاصفا ، ومهما تكن الوسيلة التى شاء الله ان يميتنى بها فانى أريد أن أختم حياتى وفى قلبى هـــذا الدعاء « نحمدك اللهم ») .

وهكذا ... بعد أن أسلم بحار السفينة المحطمة روحه الى الله .. ابحر وحده مجردا من الصحب .. ميمما شطر الجزيرة المجهولة فى الظلام .

جوناثان سويفت

(١٦٦٧ ــ ١٧٤٥)

ــ ١ ــ

قصة جوناثان سويفت هى مأساة عملاق وثقه الأقزام بالأغلال ، ولكنها أيضا مسلاة ساخر عرف كيف يضحك من أغلاله ، كان له عقل بالغ القوة فى جسم بالغ الضعف. وهو مزاج يجعل من صاحبه اما واعظا مملا أو ماجنا لامعا حصيفا . وقدجمع سويفت بين الشخصيتين فى آن.

تجلى تفوق عقله حين بلغ الثالثة من العمر . وتجلى وهن جسمه فى نفس السن تقريبا فهو من بداية طفولته مصاب بدوار مسئم يعاوده .

كانت حياته كلها فى الواقع خليطا من المتناقضات وبدات هذه المتناقضات مع ميلاده ــ فمع انه ولد لأبوين انجليزيين فقد ولد فى ايرلندا وقضى هناك معظم حياته. وبدا فى أخلاقه ذلك الأثر المزدوج ، أثر أسلافه وأثر بيئته ... فقد شب انجليزى العقل ايرلندى القلب . فقد أباه وسنه ستة أشهر فاذا كان شهره الثانى عشر اختطفته حاضنته . فهى لاتكاد تسمع بموت عم لهما أخلفها تراثا فى انجلترا حتى تبحر فى سفينة دون ان تخطر سيدتها ، وأخذت معها على ظهر السفينة طفل سيدتها . ولم يعد جوناثان الى أمه الا بعد ثلاث سنوات من ذلك الحادث وكان الطفل قد قوى فيه حب كبير

للانجيل وكلف شيطانى باللهو والمزاح .

وفى السادسة التحق بمدرسة كلكني والتحق فى الرابعة عشرة بكلية ترنيتى بدبلن وهنـــا أظهر شغفا بالمطالعة وانتقاضا على النظام . ولم ينل البكالوريوس الا بشق النفس. ولكن حيل بينه وبين درجة الأستاذية « لوقاحته مع مساعد العميد » فعاد الى بلدته يجلله العار .

ولـــكنه وفق رغم وقاحته فى الحصول على منصب سكرتير لسير وليم تمبل . وهو من أوساط الأدباء . وكان مستشارا مقربا الى ملك انجلترا وكان فيما يتناقل من لفظ حاقد مريب الأب الطبيعي لجوناثان نفسه . وأتاح له المنصب عشرين جنيهـا فى السنة ومكانا على المائدة الثانية مع الخدم . ففنى السكرتير الألمعى جيبا واضمحل شأنا ، فأقام بنسخ أفكار سيده الشيخ غير الألمعى . فاذا فرغ لنفسه ــ وقليلا ما كان يحدث ذلك ــ نسخ خواطره الشخصية بالشعر غالبا .

وفى أوقات فراغه هذه القليلة (أثناء تدربه) وجد الشاب متعة أخرى فى تعليم فتاة صغيرة تدعى ستيلا هستر جونسون . وكانت طفلة شائقة فى الثامنة، تقيم بمنزل سير وليم . وكان الغموض والابهام يكتنفان مكانها من المنزل ، والأصـــل الذى تحدرت منه . فهى قد رسمت ابنة لرئيسة خدم سير وليام واد وارد جونسون احد محصلى السيد . وأحبها سير رليم فكانت كعضو فى الأسرة . وسرت شائعة ــ وقد يكون لها فى هـــذه المرة مبرر ــ ان ستيلا أيضا ابنة طبيعية لسير وليم . ومهما يكن من أمر هذه الشائعة فان سير وليم لم يقف عند تخصيص بعض ماله لها بعد وفاته بل جاوز تلك الى تربيتها تربية السيدات فى رعاية جوناثان سويفت .

وكان سويفت ينعم بتعليم ستيلا . أما هى فكانت تعبد بكل جوارحها ذلك المدرس الطويل الكادح ، ذا اللسان اللاذع والبسمة الوادعة .

ولبثت هذه العلاقة الممتعة بين التلميذة ومدرسها تسع سنين يعتورها المد والجزر . ثم تغير عمل جوناثان سويفت . فقد رسم قسيسا فى قلعة دبلن . وسر القسيس الشاب بهذا الشرف الروحى ، ولكنه ضاق بالمركز المادى فهو حين قرر العمل فى الكنيسة كان يتوق الى بلوغ قمة الكنيسة الانجليزية لا أن يكون فننا على فرعها الأرلندى . ولكن أمنيته هذه العزيزة الوحيدة وهى بلوغ منصب هام فى كنيسة انجلترا كانت الشيء الوحيد الذى ينكره عليه رؤساؤه أشد الانكار . فذلك القسيس المجنون كما كانوا يدعونه له عقل زاخر بالمفاجآت وقلم ينبو عن التقاليد المرعبة . فهو لايصلح زعيما من زعماء العقيدة المتعارف عليها ، فقد يلقى بأية قنبلة فى أية لحظة على عقيدة اخوانه فى الكنيسة . وكان الجميع وقتئذ يعرفون انه قد كتب سخرية ببعض الطقوس الدينية فى أوربا وان لم يجرؤ على نشر ماكتب وقد أطلق على هذه السخرية (قصة البرميل) .

وهذا العنوان كما ذكر فى المقدمة مأخوذ من بعض تقاليد البحارة . فهم اذا قابلوا حوتا القوا بقارب خاو ليصرفوا الحوت عن مهاجمة السفينة . وانه ليتبع نفس التقاليد فيلقى بهذه القصة ليصرف الكفار عن مهاجمة الكنيسة . ثم يمضى فى الكتاب فيبين كيف انحرفت المسيحية عن دين المسيح ، ويوضح رأيه بصورة رمزية لأب أخلف ثلاثة معاطف متساوية القيمة لأبنائه الثلاثة بطرس(الكنيسة الكاثوليكية) ، ومارتن (كنيسة انجلترا)،

وجاك (الكنيسة الكلوينية) وقال لهم الأب : هذه المعاطف ستحفظ عليكم جدتكم وصحتكم ماحييتم فارتدوها الآن وأكثروا من العناية بهـا . كذلك أوصى بأن تعيشوا جميعا فى منزل واحد كما يعيش الأخوة. فانكم بذلك تستيقنون النجاح وتتقون الفشل .

وأخذ الأخوة الثلاثة معاطفهم ـ كما يقول سويفت ـ وسرعان مانسوا وصية أبيهم ، وأخذ كل منهم يعدل فى شكل معطفه مرات ، حسب تغير النظر الى شكل الأزياء.

وأخيرا نرى بطرس وقد زين معطفه بحشايا للكتفين وأشرطة ذهبية ورفوف مزركشة حتى اختفت معـالم المعطف ، وصار الناظر اليه لا يتبين فيه المعطف الذى اعطاه اياه أبوه . ثم يفترض بطرس بعد ذلك انه ـ دون شريك ـ صاحب المعطف الحقيقى الوحيد ، ويعلن فوق ذلك انه وحده يملك بيت أبيه ، وسرعان ما يقذف بأخويه الى العراء .

يقول سويفت وعندئذ أعاد الأخوان الطريدان فحص وصية أبيهما (الانجيل) وحاولا أن يردا معطفيهما الى بساطته الأصلية المعقولة .

ثم يختتم سويفت قوله بأن مارتن قد نجح فى هـذه المحاولة نجاحا لابأس به فقد انتزع من المعطف كل وشى لا ضرورة له ، ولم يحرص الا على استبقاء تلك الحلى التى تفنى فى تقوية الثوب أو اخفاء عيبه . واما جاك فاندفع متحمسا فى تبسيط المعطف بحيث مزقه وأحاله خرقة ، فاذا أتى الناس ينظرون اليها ويضحكون منها . . كفى فان البقية لأغلظ من أن يسيغها الذوق الحديث .

ولم تنشر قصة البرميل الابعد أن مضت على كتابتها

عدة سنوات ونشرت بغير اسم المؤلف . وهذه القصة وان يكن المقصود بها ان تقدم تشبيها يظهر منه المؤلف فضل كنيسة انجلترا على غيرها فانها قد فشلت مع ذلك فى ارضاء مطارنة كنيسة انجلترا وكبار اساقفتها. لقد ضحكوا من سخر سويفت بعيوب الكنائس الأخرى . لكنهم استشاطوا غضبا من اشاراته الى عيوب كنيسته، وقرروا ان هذا القسيس الشاب ستجنى عليه مهارته ، وانه بحاجة الى أن يدارى والى أن يراقب .

— ٢ —

ويلقى سويفت فى شيخوخته نظرة ذات يوم على بضع صفحات من قصة البرميل ثم يهمهم قائلا : « يا الهى يالها من عبقرية تطامنت لى حين ألفت ذلك الكتاب» . فهذه هى مأساته التى جلبت عليه النحس. ان عبقريته أجل من أن يفهمها معاصروه . فأوجست العقول الصغيرة خيفة من العقل الكبير ، وعمدت الى ابقائه أسيرا فى منصب مغمور بعد منصب مغمور ، من كنيسة دبلن الى ابرشية ريفية فى لاراكور، ومن كنيسة لاراكور يعاد الى كاتدرائية سانت باتريك بدبلن . ولكنه لايمنح وظيفة مطران فى انجلترا أو حتى ايرلندا ولم يجرءوا على أن يجاوزوا به وظيفة اسقف. لقد نال الدكتوراه فى اللاهوت وكسب صداقة أعظم الانجليز نفوذا ، وتمشى مع رئيس الوزراء ، ولعب الورق مع وزير المالية . كل هذا ولا جدوى . وكلما طلب ان يعين فى أحد المراكز الهامة بالكنيسة قوبل طلبه برفض مهذب . لقد أوغل قلبه فى الضنى والضرم . وأرسل ملتمسه ذات مرة الى الملكة مباشرة ... وكانت نفس النتيجة السلبية . وظل

سويفت الأسقف أشهر نكرة فى عصره .

ولكنه يحتفظ فى ذلك كله بمظهر البشر وتمتلىء أيامه بالنكات والضحك ، فيما خلا الدوار الذى كان يختلف عليه دائما . وكان يحب الناس فرادى وان أبغضهم جماعات ، ذلك الرجل الطويل القوى الاسمرذوالعينين الزرقاوين النفاذتين والحاجبين الغزيرين الأسمرين والصوت الجهورى الواضح . أى قصص تلك التى كان يرويها وأى لغة تلك التى يتحدث بها خاصة وهو فى صحبة الرجال . وما أبهاه وما أشهمه مع النساء رغم ما يشاع من عيوبه الجسمية .

رجل يعلو محياه البشر ، ويضطرم صدره غضبا كأنه الاتون . فهو يدرك تفوقه على زعماء زمانه . لكن كتب عليه أن يمثل فى حضرتهم دور التابع . لقد قدم لندن فى وفد جاء يدافع عن شعب ارلندا (ويدافع هو عن ترقيته) فقابل أكبر رجلين من ساسة انجلترا هما بولنجبروك وهارلى .

وحاول جهده أن ينال لديهما مكانه . فالمرء فى لندن يجب أن يتسلق بأطرافه الأربعة ، ولكنه ظل نديمهما المهرج الأثير ، وان كان يهرج بلا مقابل ، ويكتب لهارلى نشرات سياسية كما قد فعل دفو من قبل ، ولكنه يفترق عن دفو فى انه يرفض ان ينال جزاء عما كتب . وصافحه هارلى ذات مرة فتمكن من أن يدس فى يده خمسين جنيها . فألقى الكاتب الثائر بالورقة فى وجه هارلى وغادر الحجرة مغضبا ورفض أن يرى هارلى مرة أخرى ، حتى زاره هارلى فى منزله ليعتذر له بنفسه .

ان سويفت لايبغى بعمله مالا ، بل يبغى وظيفةكبيرة .

وهذا ما عجز دائما عن بلوغه ، سواء من هارلى أو من اى سواه . غير ان اقامته بلندن وان فشلت سياسيا فقد كانت نصرا فكريا . ففدا سويفت الفارس المعلم فى مشارب لندن التى تجتمع فيها ألمع عقول لندن يوميا للتبارز باللسان . وكان (الأسقف العجوز) امهرالمتبارزين جميعا . وان لم يكن أكيسهم دائما . كان يضرب ضربات عميقة حادة فاصلة . وكان حديثه يخلو من كل بلسم ملطف حين يقصد الى الايجاع حقا . قال أحد كتاب سيرته : لم يتطامن لأحد ماتهيأ لسويفت من عظم حظه من العقل ، وقلة حظه من المرونة والكياسة .

كان ذهنه فذا فى الأذهان ، لايتلطف فى تمزيقه ذلك الطلاء الزائف الذى يخفى قبح الحياة .. وكان ساخرا قاسيا ينزل برواء الخيال الى سخف الواقع . ويتبدى عقله الساخر فى تصرفاته الودية وغيرالودية على السواء. وكان يفعل دائما مايدهش ويحير .. يفعل الشىء الذى لاينتظر . لأنه هو المنطقى السليم .

من هذا مايرويه الشاعر إسكندر بوب فى قوله «ذات مساء : ذهبت مع جاى (مؤلف أوبرا المتسول) لزيارة جوناثان سويفت ــ انك لتدرى قوة مودتنا ــ فلما التقينا قال سويفت «طاب يومكم. مامعنى هذه الزيارة ؟ كيف انى لكما أن تتركا اللوردات العظام كلهم وأنتما بهم شديدا الكلف وتأتيان هنا لتزورا قسيسا مسكينا ؟ .. »

ــ لأننا نفضل رؤيتك على رؤية أى واحد منهم .

ــ ربما صدقكم فى ذلك من لايعرفكما معرفتى . أما وقد جئتما فأحسب ان من واجبى تقديم العشاء لكما.

ــ كلا لقد تعشينا يادكتور .

ـ تعشيتما ؟ هذا مستحيل . أن الساعة لم تبلغ الثامنة بعد .

ـ لقد تعشينا فعلا .

ـ هذا عجيب جدا ! لكن لولا ذلك لكان على أن آتى لكما بشيء . فلأفكر ماذا كنت محضره ؟.. اثنين من سرطان البحر؟.. كفاية .. ثمنهما شلنان ـ وفطائر بشلن ـ لكنكما ستشربان معي كوبا من النبيذ . وان كنتما قد تعشيتما قبل موعدكما المعتاد بوقت طويل رحمة بجيبى .

ـ كلا . اننا لنؤثر الحديث معك على الشراب .

ـ لكن لو تعشيتما معي ، كما كان ينبغى عقلا لشربتما معي زجاجة من النبيذ ثمنها شلنان . اثنان واثنان اربعة ، وواحد خمسة . كل منكما يخصه شلنان ونصف شلن . تفضل يابوب هذا ما يخصك ، وهذا ما يخصك ياسيدى ، لأنى لن أصيب من المال شيئا على حسابكما .

ويختتم بوب كلامه بقوله « ولقد ارغمنا على قبول النقود . رغم كل ما استطعنا قوله فى الاعتراض عليه » .

كذلك كان شذوذ العميد سويفت ، ذلك المتهكم الوديع الرشيق العابس . ذلك الأديب الذى يدفق لعبقريته ، والواعظ الذى يزدرى لصراحته ، والعلم الذى يستشهد بأقواله فى كل مكان ولا يفهمه أحد . عاد من انجلترا محملا بالتكريم دون أن يمنح منصبا . انه لجبار عملاق ، مقيد بالأغلال فى أرض الأقزام .

لكنه لم يغادر أقزامه الانجليز دون نكتة . فهو يثقب وطاب ادعاءاتهم فى شخص جون بارتريدج .

وكان هـــذا الرجل اسكافيا . حاول أن يجعل من نفسه شيئا . فهو ينشر كل عام تنبؤاته الفلكية وشاء سويفت أن يفضح سخف هذه التنبؤات فنشر بتوقيع اسحاق بكرستاف تقويما ينافس ذلك التقويم ، ويشتمل على تنبؤاته الشخصية . وجاء فى هذا التقويم الجديد: ان أول تنبؤاتى خاص ببارتريدج الفلكى. فقد استخرت طالعه فعلمت انه لامحالة ملاق حتفه فى التاسع والعشرين من مارس القادم حوالى الحادية عشرة مساء من اصابته بحمى عنيفة .

ومضى التاسع والعشرون من مارس ، واحتج برتردج بأنه لم يزل على قيد الحياة . ولكن يثبت بكرستاف على موقفه ، فينشر وصفا دقيقا مفصلا لموت مستر برتردج الفلكى فى التاسع والعشرين من مارس ، فيكرر مستر برتردج قوله بأنه ليس ميتـــا . وحينئذ يعلن مستر بكرستاف فى لهجة الجد ان جون برتردج لم يقف أمره عند كونه جثة هامدة . بل لقد جاوز هذا الى الـكذب.

وهكذا وقع فى الحيلة المحتال . وظل بارتردج حتى آخر حياته « ميتا وكذابا » .

ـ ٣ ـ

كان سويفت رجلا غريبا ومن أغرب ما فيه علاقته بستلا Stella وفانسا Vanesa . وستيلا كما رأينا هى الصبية الصغيرة التى كان يعلمها وهو يعمل أمينا لسير وليم تمبل . فلما نمت صارت علاقتها به أقل من الحب ، واجل من الصداقة . أما فانسا فقد قابلها فى احدى زوراته للندن وربطته بها مودة . ورغم انها أليق

فى سنها بأن تكون من بناته ، فقد أحبته حبا عنيفا .
وبدأ حينئذ ثالوث من أعجب ماشـــهد تاريخ الهوى .

وكان سويفت مخلصا لهما جميعا ، وان لم يستسلم لواحدة منهما . وهو يواظب على مراسلاته الحميمة مع ستيلا وهو فى انجلترا . وحين هو بايرلندا يواظب على مراسلاته الحميمة مع فانسا . فاذا استقر به المقام أخيرا فى دبلن حيث اشتغل نائب أسقف سنت باتريك وجد نفسه مثقلا بحمل ممتع وان يكن محيرا . وذلك لوجود كلا صاحبتيه بالقرب منه . فستيلا تقيم فى منزل غير بعيد من كنيسة سانت باتريك ، وكانت اذا غاب سويفت جاءت فى كثير من الأحيان للاقامة فى منزله . واما فانسا فقد استأجرت منزلا فى ضاحية لدبلن، بدعوى انها وقد ورثت المزرعة فعلا فقد صار عليها الآن ان تعنى بها عناية شخصية . ولم تلتق الغريمتان ستيلا وفانسا مطلقـــا . ولـــكن كلا منهما تعرف أمر الأخرى وتزعج سويفت بغيرتها منها . وكانت فانسا أشدهما تهورا . كتبت الى سويفت خطاب اعتراف جاء به(لقد ولدت عنيفة العواطف . وقد تجمعت عواطفى كلها فى واحدة ، هى تلك العاطفة التى أحملها لك والتى لا سبيل الى وصفها . حنانيك ! شيئا من الرقة والا فقدت صوابى) وأخيرا انحطمت المرأة تحت عبء عواطفها وكتبت وصيتها فى أول مايو سنة ١٧٢٣ وقد عمدت فيها الى اغفال اسم سويفت وماتت فى أول يونية دون دعاء الله أو القسيس وفى يديها قصاصة من قصة البرميل .

وكانت ستيلا لا تقل عنها حساسية لـكنها تسمو عليها عقلا بكثير . وقد عاشت خمس سنـــوات بعد غريمتها . وكانت على العموم عنصرا مهدئا فى حيـــاة

القسيس المجنون فهي امراة قوية الخلق متيقظة العقل وهى أميل الى مسايرة الفكرةالخاطئة منها الىمعارضتها. وكان العذر الذى تتــذرع به عادة ـ ونحن نستشهد الآن بكلمات جوزيف اديسون (المســايرة طريق تمنع الضجة وتوفر الوقت) ومع بغضها لأن تملك نصف قلب محبوبها فحسب فقد كانت تقنع نفسها بعبارة لاذعة تتفوه بها من حين لحين عن (عزيزى المرائى) وكانت تدرك على العموم ان سويفت رجل غير عادى يجب أن يعامل بلباقة غير عادية .

وهكذا عاشت حياتها اللبقة خادما له لا صاحبة . وليس من دليل ـ كما يقول بعض معاصريه ـ علىأنهما تزوجــا يوما من الايام . فلما ماتت آخر الأمر تركت فراغا خالدا فىقلب العميد العجوز المحزون ومنذ الآن سيغدو سلوكه الخارجى كتفكيره الداخلى ينبىء عن رجل محزون ممرور . كتب لأحــد أصــدقائه يقول « انى لأمقت العالم فقد أصبحت لا أصلح له البتة » .

ـ ٤ ـ

اصبح العميــد سويفت لايؤدى من الطقوس فى أيام ميلاده غير قراءة ذلك الفصل من الانجيل الذى يلعن فيه أيوب يوم ميلاده . انه ليزيد كل يوم زراية بالانســان وخدمة لبنى جنسه . فهو يتحمس لتخفيف أعبــاء الايرلنديين وهو يصلاهم بلسانه حربا ويعانقهم بذراعيه حبا . وغدت آلام ايرلندا شغله الشاغل فى شيخوخته وصار مطمحه الذى غلبه على كل مطمح هو أن يخفف هذه الآلام . حدث مرة ان اقترحت الحكومة الانجليزية قانونا جائرا بالأرلنديين فتحــدى الظلم بسلسلة من

الخطابات الشديدة المفحمة فاضطرت الحكومة الى سحب الاقتراح . وهـذه هى الخطابات التى أمهرها سويفت بتوقيع م.ب درابير صاحب حانوت لبيع البضـائع الأرلندية والتى كسبت لسويفت شكر ان الأرلنـديين وعرفانهم على مر الزمن .

واصبح ذلك من مصادر مضايقته دائما فهو لا يحب تملق الجماهير . لقد ساعدهم ــ كما قال ــ لاحبا لهم بل كراهة منه للعبودية . انه يعرف نلون الدهاء وتقلبهم فهم مستعدون لأن يهللوا لجرأته فى النضال عنهم. لكن أتراهم يحركون اصبعا لانقاذه من مغبة جرأته ؟ وهو يروى قصة لتوضيح هذه الفكرة . كان اسبانى يهودى يسير الى الخازوق ومن ورائه جمهـور متحمس من الأتباع ويخشى الصبية ان يحرموا المتعة اذا هو أنـكر التهمة ، فهم يربتونه على ظهره صـائحين مشجعين « موسى أقم على ثباتك » .

وظل سـويفت على ثباته رغم الصبيـة الطائشين والفضوليين الوحشيين فى العالم ، شديد الازدراء لوحشية الجنس البشرى فى حنثـه بايمانه وانفعالاته وسخافاته واحتياله وحربه ، كان يذهله عدم انسانية الانسان نحو الانسان . انه فاقد كل ايمان بالعقل البشرى . وقـد أعلن افلاس ايمانه بالانسان فى نشرة يقف منطقها المفحم فى صف فريد حتى بين كتابات سويفت نفسه . عنوان هذه النشرة « اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من ان يكونوا كلا على آبائهم وعلى الوطن ، وللافادة منهم فى المجتمع » يتساءل فيها ما فائدة كل المقترحات التى تقدم تخفيفا لوطأة الفقر الأليم والفـاقة الملحة عن فلاحى ايرلندا ؟ ..

لماذا يضيع وقت حتى الآن فى محاولة تعليم اللوردات الغائبين عن أرضهم أية مرتبـــة من مراتب الرحمـــة بمستأجرى أرضهم على الأقل ؟ لاعلبك من تلك الآراء الباطلة الخيالية السلبية . فان لديه ــ اى صــاحب الاقتراح المتواضع ــ خطة عملية جديدة كل الجدة آمل الا تتعرض لأدنى اعتراض .

وهذه هى الخطة فى ايجاز .

« لقد اكد لى امريكى من اهل الذكر أعرفه فى لندن ان الطفل الصغير الصحيح البدن الحسن الرضاع يكون اذا بلغ عامه الأول طعاما غاية فى اللذة والتغذية والفائدة الصحية .. سواء أكان مطبوخا أو مشويا أو مقــددا أو مسلوقا . ولست أشك أدنى شك فى انه يصلح كذلك محمرا أو مطهيا فى بصل .

فليربى فلاحو ايرلندا أطفالا اذن ليكونوا طعاما للملاك الأنجليز . فالطفل يكفى طبقين اذا كانت مأدبة للأصدقاء . اما ان كانت الأسرة تتعشى وحدها فان الربع الأمامى والخلفى يكفيان اعداد طبق معقول . واذا تبل بقليل من الفلفل أو الملح فهو يصلح جدا لأن يسلق فى اليوم الرابع خاصة فى الشتاء .

ولست انــكر ان هذا الطعام سيكون غاليا شيئا . لذا فهو مناسب جدا للملاك الأراضى ، لأنهم بعد أن ابتلعوا معظم الآباء صاروا ــ فيما يظهر ــ أصحاب الحق الأكبر فى الأبناء . ولقد حسبت تكاليف ارضاع ابن المتسول فوجدتها تبلغ نحو شلنين فى العام . ولن يتبرم أحد من السادة ــ فيما أظن ــ بدفع عشرة شلنات فى شراء جثمان طفل سمين . بذلك يصير المالك محبوبا من المستأجرين ، وتصيب الأم ثمانية شلنات ربحا صافيا وتكون صالحة

للعمل حتى تضع مولودا جديدا . ثم يدور سوط تهكمه دورته النهائية ... فيقول : يستطيع غلاة المقتصدين ان يسلخوا الجثة... فان جلدها اذا كسي كساء صناعيا صنعت منه قفازات رائعة للسيدات وأحذية ينتعلهـا السادة المهذبون فى الصيف .

قرأ السادة ملاك الأراضى هـذه النشرة وأعربوا عن اشمئزازهم من بربرية الكاتب ومضـوا فى طريقهم «الحضرى» ... طريق اماتة المستأجرين الأرلنديين جوعا على مهل . اما البربرى فقد مضى فى ثورة حقه وتبرم حق ساخرا من كل انسان . باذلا صدقاته لموكب من المتسولين كان يقصد بابه يوميا انه يكره المتسولين والدنيـا بهم مليئة كما قال « فانك لتجدهم بين الأغنياء كما تجدهم بين الفقراء فالغنى يستجدى مملكة والفقير يستجدى كسرة خبز» وكانت كراهة سويفت لضخام المتسولين أضعاف كراهيته لصغارهم . فهم كلما كبروا ـ كما يقول فى رحلات جلفر ـ زاد ايلامهم للعين والأنف أما هو فلا غناء له فى الاستجداء لأنه لايجد فى المال نفعا .

ويقول انه فى هذا يحتذى حذو الله « وبوسعنا ان نعلم كم يحتقر الله المـال اذا استعرضنا من اختصهم بالمـال » كذلك مضى القسيس المجنون فى طريقه الى الشيخوخة متفكها معنفا ، وقد خيل للناس جميعا انه يقف على رأسه، ذلك بأنه الوحيد الذى يقف على قدميه فى عالم مقلوب رأسا على عقب .

— ٥ —

بلغ سويفت الآن اعوام الحكمة البصيرة ، وقرر أن يضمن حكمته تلك الرحلات الخيالية ، رحلات جلفر ، وبعث

بمخطوط القصة فى ٨ اغسطس سنة ١٧٢٦ الى الناشر (بنيامين موت) وأرسل مع المخطوط خطابا بتوقيع ريتشار سيمبسون زعم فيه انه ابن خال لمويل جلفر وقال .. لقد أئتمننى مستر جلفر منذ بضع سنين على هذا المخطوط فى وصف رحلاته .. وقد عرضتها على الكثيرين ممن رزقوا القدرة على الحكم ووهبوا الامتياز. وقد تحسب اذا قرأت بعض أجزائها ان هناك شيئا من التهكم فى موضوع أو موضوعين . ولكن الرأى متفق على انها لاتجرح أحدا . ثم يمضى مستر سمبسون فى خطابه فيعرض مائتى جنيه ثمنا للمخطوط فاذا لم يف المبيع من الكتاب بهذا المبلغ رد باقى المبلغ الى الناشر .

ونشر الكتاب فى خريف عام ١٧٢٦ ونفدت الطبعة الأولى فى أسبوع وضحك الجميع من ذلك الهجوم المرير الذى شنه جلفر على غباء الجنس البشرى الهمجى ، فقد حسب كل امرىء انه ليس المعنى بهجوم الكاتب ، انما المعنى جاره . فوصل الم الكاتب ذروة لم يبلغها من قبل . لقد فشل فى تحقيق ماهدف اليه « أردت أن اغيظ الناس وأستثيرهم لا أن أرفه عنهم وأسليهم » . وقصة رحلات جلفر هى مغامرات رجل عاقل فى عالم مخبول ملىء بالباطل والزهو . الا ليت العالم بدل أن يستمتع بعقلائه قد اتاح لهم ان يحكموه . اذن لقل الجشع ، وزادت الدماثة . وقلت الثروة الشخصية وزادت الأخوة بين الناس. وقلت القسوة وزادت الرحمة. وقل البهرج وزاد المجد. وقلت الوقاحة وزادت الحكمة. كتب سويفت الى اسكندر بوب يقول ـ طالما حاولت ان أنشىء صداقة بين عقلاء الناس جميعا وهم قل ان يزيدوا على ثلاثة او أربعة فى كل جيل ولو أمكن اتحادهم لساقوا

العالم أمامهم سوقا . ولقد لقى سويفت أحد هؤلاء العقلاء ، فولتير ــ ذلك الشاب الفرنسى الثائر المنفى الى انجلترا لصراحة لسانه والذى قال (ان صناعتى هى أن أقول ما أعتقد) فجلس فولتير عند قدم القسيس المجنون وتشرب فلسفته وكتب (مكروميجاس) تقليدا لرحلات جلفر وعاد الى فرنسا يحلم باستئصال الأحقاد والمظالم من حكام العالم ــ ومضى القسيس المجنون يبحث بلا كلال عن عالم عاقل . وان جسمه ليطحنه الألم وقلبه ليصيبه الحزن المتكرر لفقد أعز أصدقائه « ان هبة العمر الطويل تشترى بثمن بالغ الفداحة» ولكى يقوى نفسه على احتمال عبء شيخوخة متوحدة كتب دعاء وجد بعد موته بين أوراقه التى لم تنشر « اللهم انك تهب نعمتك وتصب نقمتك كما يشاء عدلك ورحمتك اللذان وسعا كل شىء ... فوجه اللهم أفكارنا الى ما نصبو اليه من نعيم واصرفها عن ذلك البوار الذى يفوق الوصف والذى نوشك ان نمنى به » . كان دائم التفكر فى هناء الانسان .. ذلك الساخر الذى واجه بنى الانسان بالعواء والشحناء .

— ٦ —

محى الآن تفكيره ، وخمدت آلامه ، وسكن عؤاه ، وصار كل ذلك الى نسيان رحيم لقد خوى عقله من كل شىء وكان يقرأ « قصة البرميل » ذات يوم فقيل له انه مؤلف هذا الكتاب . فقال (كلا ان مؤلف هذا الكتاب عبقرى) وكثيرا ماكان يرى وجهه الهزيل فى المرآة فيقول فى أسى من لا يعنيه الأمر (رجل عجوز مسكين) وفى أيام ميلاده حين تدق النواقيس المشاعل تكريما له كان يسأل

«من ذلك الرجل الذى يحبه الناس بكل ذلك الأخلاص؟» .

١٩ أكتوبر عام ١٧٤٥ـ سماء صافية فوقه وعقل غائم فى رأسه . ولكن الغمام تبدد لحظة من الزمن وسمع سويفت يتمتم «رباه عنايتك الساهرة بى فى رحلتى الأخيرة هذه » .

فاذا بدأ رحلته خرجت مدينة عن بكرة أبيها تدعو له بالتوفيق. لقد تعلموا عبادة ذلك الرجل العظيم الكراهة، العظيم الحب . أما كراهته فللظلم ، وأما حبه فللناس.

لـورنس سـترن

(١٧١٣ - ١٧٦٨)

- ١ -

كان جد لورنس كبير أساقفة (يورك) وكان يقف فى مكان واحد كأنه تمثال من الجرانيت . وكان أبوه جنديا قلقا لا يستقر فى مكان كأنه الريح .

«كان يوم مولدى فألا سيئا لأبى المسكين» ، فقد ألقى به مع كثير غيره من الضباط الشجعان فى أمواج الدنيا العريضة ، وهو خاوى الوفاض ، الا من زوجة وطفلين . لقد كان « ألعوبة » يتقاذفها الالهة المتعادون فى وزارة الحرب . وكانت تتحكم فى مصيره أيضا زوجة مخصبة ، ولدت له رهطا من الأطفال الضعاف المصابين بفقر الدم.

وتنفيذا للأوامر الصادرة الى الفرقة ، كانت تتبع زوجها من ايرلنده الى انجلترا ، ومن انجلترا الى ايرلنده ، ومن حامية فى البر الى ميناء فى البحر ، ثم تعود من حيث جاءت . وفى خلال ذلك تلد دون انقطاع وتدفن أطفالا دون انقطاع حتى أخذ الأصدقاء يتحدثون عن فقد (السيدة سترن) طفلا فى هذا المكان ، وآخر فى ذاك ، وكان الأطفال كانوا قطعا بائسة من قطع المتاع ، قد كتب عنوانها « من السماء الى القبر مباشرة » .

والحق ان الموت كان بالمرصاد لأكثر من نوع واحد من العمل فى خدمة قوات الملك . ففى جبل طارق أصيب

ابو لورنس سترن ، وكان محاربا شديد المراس ، بطعنة فى صدره ، وكان ذلك فى مبارزة من أجل أوزة . وقد وقع الحادث فى غرفة صــغيرة ، واغمد كابتن فيلبسر نصله بعنف فى جسم سترن بحيث لصقه بالحائط لصقا. واذا الرجــل المجروح فى بادرة حاضرة يرجو (كابتن فيلبس) فى أدب أن يتفضل قبل سحب نصله بأن ينفض ماعساه قد لامس سن النصل من ملاط « لايســتحب ادخاله الى دمى » وشفى (كابتن سترن) من جراحه . وانسحب لينقه فى جمايكا .

وهناك مات بالحمى . وقد ذهب مرضه بعقله أولا. ثم جعل منه طفلا ، وأخيرا لم يمض شهر أوشهران ، حتىكان يسير سيرا متصلا ولايشكو منشيء حتيجلس يوما فى كرسى ذى مسندين ولفظ انفاسه الأخيرة .

وهذا المزاج من البدوات والكوارث ، وهو قدر كتب على الجندى الضئيل طوال حياته ، استمر فى حيــاة الابن لورنس ، فهو كأبيه قد تقــاذفته ريح المصادفات وبدوات رفاقه من بنى الانسان . لقد كتب لورنس عن أبيه قال (انك تستطيع غشه عشر مرات فى اليوم ، اذا لم تــكفك تسع) .

— ٢ —

وترك ابوه الأسرة وليس فى حوزتها درهم ولا دانق . ولكن الله قيض أحد أبناء العمومة لانقاذ الأسرة . فأنفق ماله لتزويد الصبى « النحيــــل العالم » بعلم الآداب القديمة (من يدرى ؟ لعلك تكون يوما كبير الاســاقفة كجدك) فهل علم ابن العم ان الكتاب الأثير لدى لورنس

من كتب القدامى هو (فن الحب) لأوفيد ؟ وان مسلاة لورنس انما هى التماجن مع الفتيات ؟ وبعد دراسة القدر المطلوب من هوراس وافلاطون وبلينى وشيشرون وحياة القديسين رسم قسيسا فى (ستون اون ذى فورست) أحدى قرى يوركشير ، ونال دخل كنائس جديدة .

ثم أخذ يعبث بالسياسة مع عم لهكان من ذوى النفوذ فى الكنيسة وأشرف على عدة أبرشيات أخرى . ثم بحث حوله عن زوجة يزداد بها ارتفاع منصبه . فتودد الى (اليزابث لوملى) مدة عامين .

وكانت الخطابات الغرامية التى كتبها هذا القسيس الشاب فذة بين خطابات الغرام فى أسلوبها الذى يحكى أسلوب القدماء ، وروحها المفعمة بتحنان العشاق .

وكان يختم قبلاته بمقتبسات من الفردوس المفقود لملتن ، واشارات الى اوبرا المتسول ، ويؤكد تنهداته بحواشى من (مقال عن الانسان) لبوب ، واعترفت اليزابث انها أحبتنى . ولكنها لم تحسب نفسها من الغنى ، ولم تحسبنى من الفقر بحيث لانصلح للزواج.. واصيبت بذات الرئة . وكنت أجلس الى جوارها ذات مساء وقدكاد قلبى يتحطم لرؤيتها فىهذه الحالة الأليمة من المرض ، فقالت لى (ياعزيزى «لورى» لن أستطيع ان اكون لك ، لأنى أومن بحق انه لم يبق أمامى غيرأيام معدودات ؟ ولكنى أوصيت لك بكل ما أملك . واطلعتنى على الوصية ففلبنى هذا الكرم على أمرى واختار الله لها الشفاء وتزوجنا) .

وقد بدأت حياتهما الزوجية بداية طيبة . فقد كان للسيدة ذوق موسيقى ، كان الراعى يعزف على القيثارة

(الفيولونسلو) وكانت هي تغنى فى مصاحبة أنغامه ولكنها كانت حياة مملة . لأن الزوجة كانت مملة . فان الفضائل كانت تزداد تعويقا لها حين تحاول مصاحبة زوجها فى قفزاته ووثباته العقلية الخفيفة الرشيقة . بحيث عجز الزوجان عن تحقيق الشرط الأول للزواج السعيد . وهو أن يمضى الزوجان فى الحياة كأنهما شخص واحد. وكان سترن متوقد الذهن . يحمله خياله على أجنحة الضحك ، بينما زوجته تسير فى كد وعناء ، مثقلة القدم غير قادرة على الفهم .

لقد قرر على نحو ما ـ رغم ردائه الكنسى ـ انه سليل أشهر الأسر بالخيال ، ان لم يكن بعراقة الأصل، أسرة يوريكس الدنمركية التى يعمل افرادها مضحكين ببلاط الملك . فليرحم الله يورك المسكين مضحك الملك وليحى خليفته مضحك العالم .

ذلك بأن العالم حزين ولابد ان يسرى عنه . فلنلق جانبا بالجد (فالجد محتال ضار من أخطر الأنواع .. لأنه ماكر) فصميم الجد هو التصميم وعقد النية .. وهو حمل للجسم على تغطية عيوب العقل بصورة مبهمة؟ وهكذا أضاف لورنس سترن الى الأناجيل المقدسة الأربعة ، مجموعة تتكون من أربعة اناجيل علمانية . هى أناجيل النقش والعزف والضحك وعبادة الكتب .

ورغم كل هذا كان يجد الوقت لهوايته المفضلة ، وهى البحث عن السعادة فقد أضرمت النار فى صدر هذا القسيس الشاب عدد كبير من السيدات . وكانت مغازلاته العذرية مثارا للفضيحة ومثارا للغيرة بين أفراد أبرشياته .

على أن هذه المغازلات لم تحل بينه وبين التقدم .

فهو لم يزل ينال الترقيات . ولم يزل الناس يعجبون ببدواته . وعين قاضيا من قضاة الريف ، فكان يجرى محاكمة الناس وفى عينه لألاء مرح من السخرية بالنفس.

ولم تشهد انجلترا منذ أيام الراهب (تك) مثل قسيس يوركشير هذا ، الذى يدفن الموتى ، ويعمد المواليد ويضحك ضحكا صاخبا حتى يخزه جنباه .

والضحك مقدم على الواجب أبدا ، وكان سترن يمر بالحقول مرة يوم الأحد ليلقى موعظته فى (استلنجتن) حين نفر كلبه الكشاف سربا من الحجال(١) فعاد الى منزله مباشرة ليحضر بندقيته . وترك الراعى « قطعانه » الذين ينتظرون مقدمه فى مركز عصيب . واتخذ لنفسه خادما فأسماه فى فكاهة شهية (مذنبى الأمين) .

وكان عليما بعيوبه فترفق بعيوب غيره . ووجد نفسه قد انتظم فى زمالة رهط من الماجنين المثقفين يدعون أنفسهم « نادى متقمصى الشيطان » وكانوا يجتمعون فى ضيعة بالريف أطلقوا عليها « قلعة المجانين » وفيها كانوا يأكلون ويشربون ويمرحون ويتحاورن فى الأدب والحب . ويكتبون مقطوعات شعرية لفينوس وابنها فى المعمودية فرانسوا رابليه :

وحين يلتئم شملهم فى الأمسيات ، (التى كلما ذكرتها نفعتنى ذكراها)

بلغوا من المرح مالم يجاوزه جمع .

مما سبق الطوفان أو تلاه .

وقضى سترن الصنف الأول من حياته ينشد مثل

(١) نوع من الطير ..

تلك الأهداف ، قابعا فى أحد أركان انجلترا ، مغمورا قانعا ملوما ومحبوبا من قطيعة المرح السـعيد ، فانه على عيوبه قد عظم حظـه من فضيلة واحدة ، العطف الدافق على كل روح حى .

لقد نما عطفه من عذابه . فلقد كان لورنس سترن رجلا مريضـا .. وكانت نظراته تكذب ضحكه . فانه بجسمه النحيل الهزيل ، وردائه الأسود ، وسـاقيه العنكبوتيتين وصدره المتكسر الذى لا تقومه دعامـة ، ووجهه الذى لا يشتمل على خدين بقدر ما يشتمل على طيات من الجلد خاوية ، يريد اقناع العـالم ــ واقناع نفسه ــ انه غير ما هو فى الحقيقـة . فان الرجل تكـاد رئتاه المصابتان أن تنزفاه حتى الموت ولم يبق غير فتحتى انفه الضخمتين تهتزان كاما تفتق ذهنه . لقد بنت لـه الطبيعة هيكلا مؤسيا ، استطاعت روح الضحك أن تبقى عليه الحياة .

- ٣ -

وكان يمضى السـاعات بعد أن ينحى عنه قيثارتـه جالسا فى المكتبة يكتب . وكان مكتبة مكرسة لثالوثه الفكاهى المبارك « لوسيان ورابليه العزيز ــ وسرفنت الأعز » أولئك الرجال الـذين تلقوا الأسى ، ومنحوا السرور . وخلفهم من قريب تقف آلهه التى يدين لهـا بحب أقل : مونتانى وبوب وسويفت . وكان سترن فى مكتبته يصفى ولاءه للمعميات الغامضة القديمة ، ويغرب فى صوفية الاغراب فى الضحك ، تلك الصوفية العجيبة.

واعد فى هذا الجو كتابا أدهش العالم والهمه وأخزاه . وهو كتاب (جديد مبتكر) لم يكتب مثله من قبل . فليس

له من شكل ولا منطق ولا وقـار . وانما هو قد لاحظ حكمة العالم وغباءه ومأساته ومسلاته ومخاوفه وخطله واحنه ، وخلط بين كل أولئك في قصة تشبه الحياة نفسها غنى فى الامتاع . وفقرا فى التنظيم . وبث فيهـا مذاقا حريفا من فكاهة رابليه. واطلق على القصة المذهلة «حياة وآراء ترسترام شاندى » .

وتلا الصفحات الأولى من الكتاب على بعض أصدقائه بعد العشاء ، فسرعان ماناموا . فجرح شعوره جرحا عميقا وسـار الى الموقـد ، وأوشك أن يقذف بالمخطوط فى اللهب . ولكن أحد الرفاق كانت لا تزال احدى عينيه يقظى ، هى العين التى ترى المستقبل البعيد . فجذب المخطوط من سترن وأبقاه لقابل الأيام . وحتى بعد نشر الكتاب كان سترن مرتابا فى أمر استقبال الناس له . انه مخلوق ليس له قط من راس ولا ذنب . فالمقدمة مثـلا مكتوبة فى منتصف القصـة لا فى أولها . والفـكاهة قريبة الشبه جدا بالشيطان حين يتغزل فى نفسه (انك تسرف فى الهذر مع عقلك الأريب . كأنما تعبث بعشيقتك. انه بلسم ممتع للعشاق ، ولكنه قليل الامتاع للمتفرج الخلى) .

ومع ذلك فقد كان يرجو أن يشبه الناس قصته بتلك القصة التى نشرت فى نفس العـام ، قصة كانديد لفولتير، وهى أفكه كتاب على مدى الزمان . ودعا آلهة كونيجوند أن تضيف أسرة شاندى الى معرض الصور القصصية الـكبرى .

وأخذ الآن يتلقى التعقيبات من أصدقائه بلندن الذين قرءوا النسخ المبدئية (ترسترام شاندى) « ان خير النقاد دون استثناء يرون أن كتابك لا يستطاع أن تطلع عليه اية

امرأة فاضلة » . فأجاب سترن ساخرا (أرجو استثناء الأرامل لأنهن لا يتقززن قط بهذه السهولة) .

فاذا ذهب الى لندن بعـد ذلك ، وجد للقصة نجاحا مظفرا . ووجد انه قد صار من الأعلام بين يوم وليلة .

ـ ٤ ـ

ان معنى كلمة شاندى بلهجة يوركشير (مجنون متقلب مرح) وتلك خاصية يتسم بها الكتاب حتى فى طباعته. فالصفحات مليئة بفواصل ونجوم وأشياء تحكي المعازف ، وقيثارات تهدهد الأنغـام ، وصفحات خاطئة الترقيم (وكأن هذا من خطأ الوراق) وصفحة خالية من الكتابة خاوا تاما .. وسلسلة عجيبة من الأسطرالمتعرجة كأنها سجل الفلكيين . وخطوط فاصلة طولها بوصة فما دون .. فلما اخذ أهل لندن فى قراءة الـكتاب شرعوا يحوقلون ويعجبون ويهرشون رءوسهم . ثم مضوا فى القراءة حتى استغرقوا فيها . يالها من آراء عجيبة ! يالها من شخصيات حبيبة ! ويالها من أوديسة ذات مغامرات خارقة !

ولا تبدأ هذه المغامرة بمولد (ترسترام) فالواقع أنه لايولد حتى الجزء الثالث . ولكنها تبدأ ببدوات وأقـدار وواجبات وامتيازات جرثومة الجنين التى سيخلق منها الانسان فيما بعد . ثم تستحثنا اشتات هذه القصة الى التعرف بوالتر شاندى ، الأب الشاذ الطبع لهذا الجنين الشـاذ الطبـع ، ووالتر شاندى رجل عظم حظه من النظريات ، وقل حظه من التجربة . وهو يحاول ابدا أن يعمل ما هو معقد لا ما هو يسير . وترتب على ذلك انه كان عادة لا يفعل شيئا على الاطلاق . فاذا كان

غليه ان يدلك اذنه اليمنى حاول قطعا ان يستخدم فى ذلك يده اليسرى عن طريق قفاه . وبذا تلتوى يده فى ألم ، وتظل أذنه بلا تدليك . وهو مسلح بحشد مذهل من النصوص الصوفية ، والعقائد السحرية . انهخطيب موهوب مأساته الكبرى عدم وجود السامعين . انه اشبه بساحر كادح امام جمع من المكفوفين .

بل لقد كانت زوجته نفسها عمياء عن رؤية مواهبه . ولا تأبه لما يقــول . فهى لاتوجه اليه اى سؤال وبذا لا تمنحه قط تلك الفرصة التى يشتهيها فى استماتة بالغة، فرصة المناقشة . يقول ترسترام (وبرحت العالم آخر الأمر دون أن تعلم هل الأرض تدور أم انها ثابتة . وقد اخبرها ابى فى لجاجة اكثر من الف مرة حقيقة الأمر . ولكنها كانت تنسى دائما) .

نلتقى الآن بشخص آخر فى بيت شاندى هو « توبى » اخو والتر . وكان العم توبى جنديا اعتزل الخدمة . وهو يقضى أيامه الأخيرة مع أسرة شاندى . وكان مليئا بالطيبة خلوا من الفكر ــ فاذا تحدث أخوه فى المسائل الفلسفية ، ركن العم (توبى) الى تدخين غليونه وصيد الذباب .

وهو لا يصيد الذباب الا ليطلق سراحه ، قال ذات يوم وقت العشاء لذبابة كبيرة كانت تئز حول أنفه ، وتقسو فى مضايقته طول وقت العشاء .. « اذهبى لن أصيبك بأذى » قال هذا وهو ينهض عن مقعده ويخترق الغرفة والذبابة فى يده .. . « لن امس شعرة من رأسك بسوء . فانطلقى » ويفتح النافذة ويفتح يده بينما هو يتكلم ليدعها تفر « اذهبى أيتها الشيطانة المسكينة . لماذا أوذيك ؟ لا شك أن العالم يتسع لك ولى » .

وثان توبى شاندى خلو الروح ولكن (ولتلاحظ هنا سحرية لورنس سترن) هذا المحب المرهف لخلق الله ، هو ايضا كبير الاعجاب بتدمير الانسان وهو يقول أمام اخيه شاندى فى دفاع فصيح غيرذى موضوع عن اعجابه بالحرب . (لقد كنت وانا تلميذ صغير ، لا يسعنى أن أسمع قرع الطبول الا دق قلبى معها . فهل أنا مسئول عن ذلك ؟ هل أنا الذى أوجدت هذا الميل؟) وحين كنا نقرأ عن حصار طرواده الذى استمر عشر سنين وثمانية أشهر — والذى ما كان ليلبث غير أسبوع لو هوجمت المدينة بالمدافع كما هوجمنا فى نامور — الم أضرب بالعصا ثلاث ضربات ، اثنتين على يدى اليمنى وواحدة على اليسرى لانى وصفت هيلين بأنها . ؟ هل ذرف احدكم اكثر مما ذرفت من دمع جزعا لما اصاب هكتور ، وحين أتى الملك بريان الى المعسكر يلتمس أن يتسلم جثمانه وعاد بدونه باكيا الى طرواده ، افتدرى ماحدث. يا أخاه انى لم استطع تناول العشاء .

انه يمقت رؤية القتلى ولكنه يحب رؤية القتل . او بالأحرى هو يحب رؤية المهارة التى تتجلى فى عملية القتل ولقد أمضى سنوات يدرس الفن العسكرى دراسة مركزه . واعاد مع خادمه الجندى ترم تمثيل حملات دوق ملبرو فى ايطاليا والفلاندز وكان فى كل يوم يحلل هذه الحملات على الورق ، ثم يعيد تمثيلها من جديد على المنفسح الأخضر المجاور لتل شاندى . فيستخدم غلايينه لتمثيل المدافع ويبعث فيها دخانا كثيفا كأنه صورة هوجاء لأعمال المدفعية . طلقة بطلقة وأمرا بأمر . وانه ليضاعف من انتصارات الدوق . وكلما احتل ملبرو موقعا ، احتل عمى توبى موقعا ايضا . ما كان للعالم أن يتمخض عن منظر أروع من .. ملاحظة الروح التى كان بها العم توبى ومن

ورائه ثرم ، يندفع مهاجما من داخل المدينة المحاصرة . وفى يد احدهمــــا نشره وفى يد الآخر فأس ـ ليقوما بالمناورات الأخيرة . وما كان أعمقه من سرور يترقرق فى عينيه حين يقف على راس الجندى . يقرأ له الفقرة عشر مرات بينما هو يعمل ، مخافة أن يحفر حفرة تزيد أو تقل مقدار بوصة . واما بعد أن تحفر الحفرة ويساعد الجندى عمى فى الهجوم ويتبعه والأعلام فى يديه ليرفعها فوق أسوار الحصون ... فما أعجب مايتولى عمى (توبى) من نشوة النصر .

تلك هى الأسرة التى ولد فيها (ترسترام) قطعة من الضلال وتقلب الأهواء فى عالم ضلت أهواؤه . وتمضى أجزاء خمسة فى التجوال الجسدى والعقلى والروحى ، تجوال فكه مجنون ، يقتادنا من غير مكان الى غير نهاية ثم يعود بنا الى غير مكان . ويقدم لنا فى خلال الرحلة ابعد ما نتوقعه من حماقات وانفعالات ومسرات فالكاتب يقتادنا فى جنون على قدر ما يقتاده القلم وأننا لنلهث حين نتبع تلك الحفلة التنكرية الجنونية من الأشخاص المقنعين وهم يدورون فى دوامتها بلا عقل ولا نظام . وكل يجذب جاره من قدمه أو رأسه أو سترته وسط صخب يضطرب اى مضطرب .

فاذا انتهى كل شيء لقفنا أنفاســـنا وقلنا فى عجب « يا لهــا من مغامرة مجنونة ! لكن يا له من جنون مرح طروب ! » .

ـ ٥ ـ

وكان فى نية (لورنس سترن) أن يتابع الجنون فى عدد من الأجزاء المتعاقبة لقصة (ترسترام شاندى) فقد رأى

فيما بعد أن ينزل بطله الى الأرض بعد ان تركه معلقا فى الفضاء وفى تلك الأثناء زار لندن ووجد نفسه الفارس العلم فى دنيا الأدب . . فالناس جميعا يقدمون الولاء لذلك الشاعر الواعظ الطويل الهزيل من يوركشير ، الذى امتزجت فيه القداسة والبذاءة أتم الامتزاج . فدعاه « جاريك » و « لورد شسترفيلد » الى مائدتيهما . وكانت حجراته تزخر بجمع من ارفع الناس مكانة منذ الصباح حتى الليل . وكانت كل دعاباته تنتقل الى المشارب ، وتنتقل عن طريق الصحف الى العالم أجمع وأصبحت الشاندية فلسفة الهذر الجديدة ، صارت ديدن كل الرجال ومعظم النساء فى هذا العصر الاباحي وقدمت كوامخ شاندى فى المطاعم وسميت خيل السباق فى ايرلنده ترسترام شاندى ، كما أطلق اسم هذا الكتاب على الملابس وأدوات الزينة بل وألعاب الورق .

وذاعت شهرة الشاندية فى الجانب الآخر من القناة . وكان الفرنسيون لعجزهم عن متابعة اللفة البعيدة عن المالوف ، والفواصل العجيبة فى الكتاب . كثيرا مايقولون (ما أحمق هذا الفارس شاندى) .

وبعد أن نال أقصى ما تستطيعه لندن من ملق ، وبعد أن استعد لنشر الطبعة التالية من ترسترام . عزم على الابحار لينعم بالدفء الحبيب فى جنوب فرنسا ، لأنه كان يستطيع أن يسمع من خلال دمه الضعيف أصواتا اخرى تدعوه وتعد له لقاء غير مشرق .. قال الأطباء الذين فحصوه (ياله من رجل لطيف .. ومن أسف أنه لن يتم الشتاء وهو على قيد الحياة) .

وسرعان ماسرى النبأ كأنه احدى دعابات سترن (انه ليملأ الفراش نزفا . ويستلقى فاقد النطق أياما بعد أن

يظهر على الملأ فى اجتماع عام . ذلك هو تاريخى !) .

ويستأجر سفينة فى دوفر . والطريق وعر ، فيستلقى فى مقصورته . ان الرياح تكاد تأخذ بخناقه « لكن بالله لأعطين الموت فرصة مرحة لمطاردتى . سأقتاده الى رقصة لم يحلم بها لأنى سأجرى كالحصان دون أن أنظر لحظة الى الوراء ، سأجرى الى ضفاف الجارون . فاذا سمعته يقعقع فى أعقابى ســـــارعت الى جبل فرسوف .. ومن هناك الى يافا .. ومن يافا الى نهاية العالم . فاذا تبعنى الى هناك دعوت الله أن يكسر عنقه » .

ولكن الموت بالمرصاد ولن يخدع عن فريسته . وتزداد حالة لورنس سترن سوءا بالتـــدريج . ويدخل باريس ، كأنه « كيس من السلع الميتة مرسلة الى بلوتو وشركاه ، وقد قضيت معظم الطريق مستلقيا فى قاع العربة على وسادة ضخمة ، هدانى بعد نظرى الى شرائها قبل بدء الرحلة » .

ثم تحدث معجزة مباغتة فينهض عن وسادته ويقتحم عباب المجتمع ليداعب الحياة دعابة ختامية ، ولا تمضى أسابيع ستة على وصوله الى باريس ، حتى يكون قد رقص مع نصف الهاتها .

لقد حير الموت نفسه بعض الوقت . فقد شك فى عنوان فريسته فانصرف عن الباب وهو يقـــول فى اعتذار عن اقتحامه : « لاشك أن هناك خطأ فى الأمر » .

ويذهل الفرنسيون « ولـــكنه مذهل ذلك الفارس شاندى » . ويدعوه دوق أورليان أن يجلس فى جمعه من الرجال ذوى الأطوار الشاذة . وتختص احدى المضيفات نفسها به فى أيام الخميس ، فتدعو كل جائع وكل ظامىء أن يتناول وجبة اعجابا بعقله المتفتق ، ولا ينجو أحد من

المعيته الشـــــاندية . فان أعجب الافكار تجرى فى راسه أبدا .

ويلقى قليلا من المواعظ فى باريس من قلبه لا من راسه ولكنه كان طول الوقت يكاد يغلبه الضحك على أمره . ويوشك أن يقذف بشعره المستعار فى وجه السامعين ، كتب مرة يقـــول (انى اضحك حتى ابكى وابكى حتى اضحك) .

ويحدث له هنا ماحدث له فى لندن اذ غلبه جمـــال النساء على أمره . كتب فرنسى قوى الملاحظة يقول : هذا القسيس يعشق النساء جميعـــا ، وبدا احتفظ بنقائه . فانه ليرتجف اذا مسته أطراف أنامل سيدة ، ويود لو البسها الحذاء ، ولو نام فى الغرفة المجاورة لغرفتها فى فندق (كلها أعمال بريئة اذا فهمتها على هذا الوجه) .

وهو بالغ الخـــرق فى تصرفاته ، بالغ الشوق الى معرفة تصرفات الناس ومساخرهم فيسافر الى جنـوب فرنسا على متن بغل بجانب تابعه الخاص الذى كساه سترة قرمزية ، ويطعم أتانه كعكه بعد أن يمضغ نباتا شوكيا ، لكى يرقب التغير فى تعبيرات وجه البغل . وهو يلقى العملة الصغيرة ويومىء ايماءة العظمة الى المتسولين اذ يتعلقون بحذائه الذى يبلغ ركبته . ويلوى عن الطريق أميالا لمجرد ان يدخل فى نقاش ممتع مع رهبان كان قد لقيهم فى طريقه ، ويدخل متجر قفازات ويمسك بمعصم البائعة فاذا عد رسغها عشرين نبضة دخل رجل فتقول هى (انه زوجى لا أكثر) ولذا يستمر ممسكا بمعصمها حتى يتم أربعين نبضة . وانه ليدعو حارس أحد المسارح ان يقذف بجندى المانى ضخم الجثة خارج مقعده لانه

رفض أن يحرك راسه حتى يستطيع قزم يجلس خلفه ان يرى المسرح . (ألسنا جميعا اقزاما نحاول رؤية المسرح لنفقه معنى المسرحية ؟ .. ألسنا أشبه .. بدمعة فخر تذرف خلسة بين كل دمعتين من دموع الهوان ؟) .

ثم يعود الى سماع وقع أقدام . فان ذلك المحتـال الواسع الخطا الذى يروع الخاطىء يقترب فى سرعة . فيرجو سترن لو تم اللقاء فى نزل منعزل بعيدا عن قلق زوجه وابنته وصحابه . وكان يرجـو أنه حـين يدخل ساحة الحساب بناء على الاعلان الذى لابد أن يصل الى الجميع ، لا يبدو دفاعه بالغ القحة أمام المدعى العـام الأكبر فهل كانت حيـاته تكاد تخلو من التدين ؟ نعم ولكنها تكاد تخلو أيضا من النفاق . وكان يضرع أبدا الى الأقدار (امنحينى النعمة والحكمة والدين ان شئت ولكن فوق كل شيء دعينى أكن انسانا) انه لم يدع قط انه أى شيء آخر « فدعينى أكن مجرد انسان » .

ان ممثل الاتهام حين طار الى ساحة العدل السماوية وفى يده التهمة قد احمر وجهه خجلا حين سلمها . وأن الملاك المسجل حين كتبها ذرفت عينه عبرة سقطت على الكلمة فمحتها الى الأبد .

سير والترسكوت

(١٧٧١ - ١٨٣٢)

- ١ -

فى خريف عام ١٧٧٧ كانت السندة (كوكبرن) وهى ابنة عم لوالدة والتر سكوت تقضى المساء مع أسرة سكوت فكتبت فى الصباح الكتاب التالى الى أسقف الأبرشية.

«...كنت أتعشى فى الليلة الماضية مع أسرة سكوت ... ولهذه الأسرة طفل على أعجب حظ من العبقرية . وكان يتلو على أمه حين دخلت ، فحملته على مواصلة القراءة وكانت القصيدة تصف سـفينة تتحطم فكانت انفعالاته تشتد كلما اشتدت العاصفة . فهو يرفع عينيه ويديه قائلا « ها هو الشراع قد اختفى انتهى . سيموتون جميعا » وبعد انفعاله يعود الى قائلا « انها شىء محزن جداً فيحسن بى أن أتلو عليك شيئا أمتع » وكنت أفضل أن نأخذ فى الحديث فسألته رأيه فى ملتن وفى كتب اخرى كان يقرؤها فأبدى لى رأيا رائعا فمن الملاحظات التى أبداها قوله (من العجب العجاب أن يعرف آدم .. كل شىء مع أنه جاء العالم لتوه) .

ولما أخذ الى مخدعه فى تلك الليلة أخبر خالته أنه أحب هذه السيدة فسألته (أى سيدة) فقال (مسز كوكبرن) ، طبعا ، ولعلهـا طلعة فى الفنون مثلى . فسألته خالته : وما الطلعة ؟ قال : الا تعرفين . انهـا الشخص الذى يريد أن يعرف كل شىء .

- ٢ -

كان للفنان الصغير عقل ضخم وجسم قوى ورجل عرجاء ، فلقد أصيب فى شهره الثامن عشر بصدمة من شلل الأطفال فأصيبت احدى ساقيه بالكساح مدى الحياة . وأما باقى أعضائه فظلت كما قال (سليمة مكتملة النشاط ، شديدة المراس ، فتعلم بها المشى والركوب بل والجرى مع خير رفاقه) وكان كريم الأب والأم ، وكان كرم المحتد يدعوه الى الاعتزاز بالنفس لا الى الكبر والخيلاء ، فهو طوال حياته رفيق طيب بين رفاق طيبين. يقول أحد العمال بعد أعوام طويلة : « أن سير والتر ليتحدث الى كما يتحدث الى أقاربه الأدنين » .

وكان منذ طفولته قلقا كأنه الاعصار ، فهو أبدا يفعل شيئا أو يقول شيئا . وكانت ذاكرته أشبه بورقة النشاف فهى تمتص كل ما يسمع أو يقرأ . وكان يعدو حول المنزل وهو يردد الشعر أو بعبارة أخرى يهتف بالشعر ويصيح . وكان يستحيل على أى انسان غيره ان يسمع له صوت فى حضرة والتر . ويقول عنه أسقف الأبشرية : ان المرء اذا تكلم فى حضرة هذا الطفل فانما يتكلم فى فوهة مدفع .

انه شيطان صغير مستقل الارادة ، نهم الى العلم ، التحق بالمدرسة فى الثامنة من عمره ، وقد كان يحفظ شكسبير وهوميروس عن ظهر قلب ، لكنه لم يكن يعرف من الحساب شيئا ، فسلكه مدرسه بين الأغبياء فى مؤخرة التلاميذ .

وكان التلاميذ أول الأمر يعيرونه بعرج قدمه « لا فائدة من أن تلاعب أعرج » لكنه دعاهم الى النزال المرة بعد

المرة وكثيرا ما كان يصبر وأنفه تسيل منه الدماء . وأخيرا كسب احترامهم .

وكسب أيضا . اعجابهم لانهم عرفوا قدرته على رواية القصص « اى قصص ياجيمى ! » عن النجـاد والوهاد والمناوشات الدامية بين أهل النجـــاد وأهل الوهاد فى المنطقة الحرام عند الحدود .

لكنه وجد وقتا لدراسة الحساب بين قراءاته وحربه ورواية القصص . وما مضى عامان حتى بلغ الفرقة الأولى . وما مضى عامان آخران حتى صار على أهبة الالتحاق بالكلية .

لكن مرضا خطيرا يعترض سبيله فى المدرسة ويكاد يقضى على حياته . فقد انفجر له وريد فى الأمعاء فقضى أسابيع فى الألم ، وشهورا فى النقاهة ثم صار على أهبة استئناف التعليم . فدخل الكلية ليعد نفسه لمهنة أبيه .. القانون .

وكان والتر سكوت يفضل حياة الجندية على حيـاة المحاماة . لكن حياة الحرب مستحيلة على صبى أعرج ، لذا حصل على درجته من الكلية وقنع بنسخ الوثائق القانونية بمكتب أبيه .

لكن عقله مابرح يطوف بالمالم وتتجاوب فيه الموسيقى العسكرية ، وتطوع فعلا بعض الوقت فى فرقة من متطوعى الفرسان وشارك فى تمريناتها اليومية . ولكن عاهته الجثمانية أدت الى اخراجه منها . فعاد الى مكتبه والى مغامرات عقله .

أخذ يكتب الشعر « غيرة من ابن جلدتى الاسكتلندى روبرت برنز» وحاول أبوه جهده ليثنيه عن هذه الطريق

« أن هذه الشطحات غير المجدية التى يشنها خيالك لن تؤدى بك الى شيء » ولكن أصر سكوت على سلوكه ، وكان عليه وهو يتدرب بمكتب أبيه أن يسافر الى النجاد ليحصل ايجارات لعملاء أبيه . وفى هذه الرحلات لقى ولتر كثيرا من الشخصيات الشائقة ، وسمع كثيرا من القصص الممتعة . وكان قد أوتى البراعة فى رواية القصص والروعة فى الانصات . ويقول أحد هؤلاء القوم فى النجاد « كنا لا نسمع عشر كلمات الا أخذنا فى الضحك أو الصخب او الغناء » .

من حملات التحصيل الى النجاد هذه نبت شعر سكوت .. ونبتت فيما بعد قصص ويفرلى .

- ٣ -

وقد وقع فى غرام فتاة رفضت أن تتزوجه ، وتزوج من فتاة رفضت أن تحبه لكنها أعجبت به لتماسك خلقه، ومرح قلبه وروعة عقله . فكان بينهما زواج ينطوى على مودة دائمة ، لكنها غير عارمة . فقد أحاطته بذلك الجو المعتدل الدفء الذى يلزم بالضبط لنماء عبقريته وترعرعها .

وكان هو نفسه يقول عن عبقريته « انها مجرد كفاية فى التحبير » .

وقد حبر على عجل بعض القصائد الاسكتلندية وعدة مترجمات عن الالمانية . لقد بلغ حينذاك عامة الثامن والعشرين ولكن لم يكن لديه أى أمل فى النجاح الأدبى . لقد وافق أباه الآن تمام الموافقة على أن شطحات الخيال

لا تؤتى أكلها ، فصار يكتب ليتسلى فى وقت فراغه من أعمال القانون .

لقد قرر أن يشتغل بالقانون فعين مأمورا لمقاطعة « سلكركشير » وهي وظيفة تدر عليه دخلا طيبا ولا تستغرق من وقته الا قليلا وتتيح مزيدا من الحرية لمزاولة عمله المنتظم بالمحاكم . وفسحة من الوقت لمزاولة هوايته الأدبية .

وقد ظل أعواما عدة يجمع اهازيج الحدود الاسكتاندية . وهو الآن يعقب على هذه المجموعة ويعدها للنشر ، وهو لا يفعل ذلك طلبا لمجد شخصى بل معونة لأحد أصدقائه القدامى بالمدرسة ، هو الطابع « جيمس بلانتين » وكان هذا الرجل فى أمس الحاجة الى عمل لمطبعته يقيها التردى فى مهاوى الافلاس ، فقدم سكوت (أهازيج الحدود) الى بعض الناشرين واشترط عليه شرطا واحدا هو أن يطبعها بمطبعة بلانتين .

وهكذا احترف الأدب ليعين صديقا من أصدقائه .

ولم تنجح المجموعة نجاحا ماليا كبيرا . وكان عنوانها « اهازيج الحدود الاسكتلندية » ولم يكن سكوت يتوقع لها النجاح فهو يقول « ان اتجاهاتى الأدبية أدخل فى باب المتعة منها فى باب المنفعة » . كذلك لم يكن يتوقع النجاح المالى لقصيدته الأولى ، ذات الأصالة والابتكار وعنوانها « انشودة الشاعر الأخير » . ولكن نجحت هذه القصيدة . فدهش لذلك أعظم الدهشة . ان نجمه ليدل دلالة حاسمة على أن حياته ستكون للأدب لا للقانون . ولكنه لا يدرك كفاءته الحقة حتى الآن وان بلغ عامه الرابع والثلاثين فهو يقول « أما عن ولعى بالأدب

فانى أضحى من أجله بفرص فى مهنتى، ذهبية تفيض على الثراء والجاه » .

كان يصبو قبل كل شىء الى أن يكون فى ذيل أعلام القانون الأسكتلنديين فخاب أمله أعظم الخيبة اذ صار أول أعلام الأدب الاسكتلنديين ، وكان الاسكتلنديون حينذاك يعاملونه على أساس تقويمه لقدر نفسه فهو كما قال « يجد منزلا يأويه فى كل مزرعة » لا بوصفه شاعر الشمال العظيم ، بل بوصفه « مأمور سلكر كشير الوديع » ولو أنك طلبت الى معاصريه تحليل مشاعرهم نحوه لأجابوك ان الذى يحبونه هو والتر سكوت الانسان .. لا المأمور .

كان غاية فى الظرف والبساطة ، صادرا عن سجية ، زاخرالرأس بالنوادر والملح ، بريئا من التعالم والادعاء ، قد وهب قلبه كله لأصدقائه ، وان عيوبه كفضائله لتنطق بانسانية واضحة ممتعة . كتب الى أحد قرائه يقول « ستجدنى نصف محام مهوش العقل . وستجدنى نصف صائد فان كوكبة من الخيل لاتزال تركض فى رأسى مذ كنت فى الخامسة من عمرى ، وستجدنى نصف متعلم ونصف مجنون ، وستجدنى نصفا فى كل شىء ، ولكنك ستجدنى جميعا . وبكل جوارحى ، عارف فضلك ومحبك الأمين ، خادمك بكليته .. بجوارحه جميعا » هذه العبارة هى مفتاح النغم فى شخصية والتر سكوت .

— ٤ —

ولئن كان والتر سكوت أخا سخاء ، فقد كان أخا حكمة أيضا . فانه ليحرص على كفالة الراحة لأسرته —

التى تتكون الآن من أربعة أطفال ـ فيوظف مدخراته فى فى دارللطباعة هى دارصديقه (بلانتين) وهكذا شارك فى مغامرة لعلها كانت تنجح لولا أمران : قصور بلانتين عن فهم الموقف التجارى ، وقصور سكوت عن فهم بلانتين . فظل المشروع أعواما طويلة يسير مترنحا ، وظل سكوت يزيد باستمرار مقدار مايلقى فى المشروع من دخله . انه لمندفع ابدا الى مأساة قاصمة ، ولكن مضى وقت طويل قبل أن يعى سكوت هذه المأساة . وكان فى هذه الأثناء معنيا بالمحاماة التى تجلب اليه دخلا يسيرا ، متلهيـــا بالشعر الذى يدر عليه دخلا وفيرا . فقد نظم «مارميون» و « سيدة البحيرة » ، وعدة قصائد صغيرة ، وكان يتلقى التمجيد الأدبى فى تهامل والضربات الأدبية بابتسام .

سمع مرة بتحقير لقصيدته « سيدة البحيرة » فانفجر ضاحكا طيب النفس . وكانت صاحبة هذا التحقير ابنته (صوفيا) وهى صبية فى الثالثة عشرة من عمرها وكان جيمس بلانتين قد قابلها فى مكتبة سكوت بعد قليل من نشر (سيدة البحيرة) فسألها عن مدى حبها للقصيدة . فأجابت فى بساطة تامة كما ذكر لأبيها « أوه .. انى لم اقرأها ، وان ابى ليقول : ان أشد مايؤذى الصغار قراءة فاسد الشعر » .

غير أن شعرسكوت الا يكن من رائع الشعر فهو بعيد من فاسده ، وان الفيصل فى هذا هو الذوق . فأنت لاتدرى طعم الفطيرة ما لم تطعمها ، ولا يلزم العلم فيمن طعمها لكى يتذوق جمالها . وهـذا سكوت يجرى تجربة على فلاح أمى صديق ، لكنه رياضى ذكى متحمس فيتلو عليه المشهد الأول من (سيدة البحـيرة) وهو مشهد (صيد الظبى) فيضع الفلاح يده على جبينه كما قـال

سكوت ويصغى فى انتباه عظيم طوال تلاوة صيد الظبي .. حتى يصل الى ان الكلاب القت بنفسها فى البحيرة وراء صاحبها . فيقف وقد تملكه العجب بغتة ويضرب المنضدة بيده ويعلن فى صوت ناقد قد أدخره لمثل تلك المناسبة ويعلن « أن الكلاب قد أصيبت بعطب تام اذ سمح لها بخوض الماء بعد مطاردة قاسية الى هذا الحد» .

ان للقصيدة مذاق الحياة يستوي فى تلذذه الفلاح الأمي والقارىء المتعلم . واننا لنشعر حتى يومنا هذا أن سيدة البحيرة برغم ايقاعها الرتيب وملالتها بين الحين والحين قصيدة شهية حية .

نجحت (سيدة البحيرة) نجاحا فاق كل مأمول ودرت الثراء ليس علي مؤلفها وحده بل وعلى كل خمار وكل حوذى وكل سائس خيل وكل تابع يقيم على مقربة من بحيرة كاترين. ذلك بأن الوفود من كل أجزاء بريطانيا بل ومن القارة (أخذت تحج الى مشهد القصيدة الذى أذاع صيته ساحر الشمال ، وازدحم كل منزل وحانة بوفود الزائرين المتقاطرة فقد غدت بحيرة كاترين مثابة للزوار وصارت القصيدة كتابا مقدسا واسما يهتف به عند الوغى).كانت مجموعة من الجند تحارب تحت امرة (ولنجتن) فى شبه الجزيرة فكان قائدهم يتلو عليهم فى صوت مرتفع وصف المعركة في المقطوعة السادسة وكان الجند مستلقين على الأرض ينصتون الى الشعر الملهم بينما نيران مدفعية الأعداء تقصف فوق رءوسهم وكان انتباههم صامتا مستغرقا الا حين يسمع منهم هتاف فرح كلما أصابت الشاطىء القريب الى ظهورهم قذائف الفرنسيين .

وظل عدد المبيع من نسخ القصيدة يتزايد من طبعة

الى طبعة وتمكن سكوت بفضل حقوق التأليف من أن يحقق حلم حياته كلها فأنشأ له فى الريف مزرعة . فلما استقر فى مزرعته على ضفاف نهر تويد فتح أبواب منزله وأبواب قلبه لكل من فى الريف من الدوق الى الفلاح الأجير فاذا حذره صحابه من الاسراف في موداته أكد لهم أن كل زواره يؤدون حسابهم بطريقة أو بأخرى . فكل زائر مهما يكن مغمورا ، كان يحمل فى برديه أنفس مايهدى .. يحمل صديقا جديدا ! فقد كان يكتفى بعملة الصداقة ثمنا لبضاعة الكرم والبذل .

لقد شاب رأسه كما كتب لأحد خاصته « لكنى لا أستطيع الشعور بأن مخي أو قلبى قد أصيبا بالبرد من اثر ثلج المشيب » والواقع ان تقدم السن لم يصب بالبرد مخه وقلبه بل لقد أتاح لهما الدفء فطار محلقا فى آفاق من الخيال جديدة ، فبعد أن ظل حتى منتصف العمر يقرض الشعر حتى غدا شاعرا من الطبقة الثانية نراه ينتقل الى النثر فيغدو شاعرا من الطبقة الأولى .

وكان فى أعوامه الأولى قد حاول مرة او مرتين أن يكتب قصة نثرية وما لبث أن كف عن المضى فى محاولة شيء فوق قدرته فلقد عرض فى سنة ١٨٠٥ سبع فصول من « وفرلى » على ناقد صديق يدعى « وليم أرسكين » فقال له صاحبه ينصحه فى غير مجاملة (اضرب بهذه الفصول عرض الأفق فهذه الفصول تنطق بعجزك عن كتابة القصص) فلم يضرب سكوت بفصوله عرض الأفق .. ولكنه نحاها جانبا ثم وقع نظره عليها مصادفة فى عام ١٨١٣ وهو يبحث عن أدوات الصيد فى درج مكتبه . وأعاد قراءة فاتحة القصة وقرر أن يتمها «لمجرد المتعة» .

وهكذا وجد (ولتر) أنه قد امتلك منجما من الذهب

دون أن يعلم ،

ولكنه لم يكن قط على ثقة من قيمة القصة فنيا ، حتى بعد أن عرف قيمتها عمليا . فنشرها جميعا غفلا من الامضاء . وقد فسر ذلك فى أواخر حياته بأنه كان يظن كرامة المأمور لا تتيح له أن يصير كاتب قصص وكان يكتب قصصه مستخفيا كأنما هو يوغل فى رذيلة سرية مخزية فاذا أتم القصص أرسلها تمرق كالسهم لتصيد له الثروة .

وأصابت سهامه النفيسة فرائس تعدلها نفاسة من الذهب والمجد . لكنه لم يكن مجدا شخصيا .

وكان يحدث من حين لحين أن يحدس ناقد فاحص أنه مؤلف القصص فما فرغت «ماريا ادجورث» من قراءة « وفرلى » حتى أرسلت كتابا لمؤلفها المجهول .. « أما سكوت أو الشيطان » ولكن سكوت لا يؤيد صلته بالكتاب ولا ينكرها . لقد جلس ذات مساء الى العشاء مع الوصى على عرش انجلترا فطلب الوصى كأسا طافحة يشربها فى نخب مؤلف ويفرلى ونظر الى سكوت نظرة ذات مغزى فملأ سكوت كوبة حتى طفحت وقال (يبدوعلى سموك الظن بأن لى حقا فى شرف هذا النخب ولست أستطيع ادعاء هذا الشرف ولكنى سأحرص عن ابلاغ « سيمون بيور » الحقيقى تلك التحية السامية التى وجهت اليه الآن) .

وظلت تواليفه تصب المال فى خزائنه انصباب الماء فى الشلال . وظل سكوت يصبها بدوره فى هوة ليست بذات قرار ، مؤسسة بلانتين للطباعة . ولم يك يدرى طول المدة ان المؤسسة تسير من سيىء الى أسوأ فتوسع فى شراء الأرض وتورط فى شبكة من الرهونات وسلى جموع زائريه وأقام العشاء وحفلات الرقص لأهل الريف على

خضرة مزرعتـــه وضرب فى التلال والوديان برغم عرجه وركب للصيد ليؤلف القصص . فكيف بالله اتسع وقته لكل هذا ؟ وابتهج بما نال من تكريم بما فى ذلك لقب بارون وزوج ابناءه وكتب قصصا أخرى واصاب مالا جديدا وأوغل فى أعماق مشروع بلانتين المفجع ثم جاءت الصدمة فقد أفلس بلانتين وضاعت ثروة سكوت كلها . وكانت الصدمة مفاجئة كما كانت مفجعة لكنها أحالت سكوت من رفيق طيب الى رجل عظيم . فهو منذ اليوم بطل لقصة اغنى بالالهام من كل ما كتب . فقد بلغت ديونه نتيجة لافلاس (بلانتين) ١١٧٠٠٠ جنيه فنصحه أصدقاؤه أن يعلن افلاسه .

ولطالما قدم هو نفس النصيحة لعملائه اذ هو محام . ولكنه الآن يرفض فى عناد واصرار ان يلتمس هذا الطريق القانونى للفـرار . وقال : لن يخسر أحد بسببى بنسا واحدا . فاذا حاول أفراد أسرته أن يشاطروه البأساء ، أبعـدهم عن الحجرة قائلا : انى أمقت احمرار الأعين والأنوف . واخـــذ يشتغل فى صبر رواقى فهو يكتب ويكتب ليؤدى كل ما عليه من دين . لقد أحال نفسه آلة حية .

كان شابان (لوكهارت ومنزيس) يتعشيان فى منزل منزيس ذات مساء ، وعلى حين فجـأة رأى لوكهـارت صديقه يحملق من النافذة قلقا .

فسأل لوكهارت : ما خطبك ؟ أتشعر بتعب ؟ .

فأجاب منزبس : كلا سأكون بخير لتوى ، لو أنك فقط سمحت لى بالجلوس حيث تجلس .. انى أرى من هنا يدا مدثرة ولا زلت أرقبها منذ جلسنا . فهى تشوق عينى .. فهى لا تقف عن الحركة أبدا ، وهى تجبر

صحيفة بعد صحيفة . ثم ترمى بهـــا على كومة من المخطوطات ولا تزال اليد تتحرك دون كلل . ولسوف تظل فى حركتهـــا حتى يؤتى بالشموع ، ويعلم الله كم ستستمر بعد هذا . وهذا يحدث كل ليلة انهـــا على الأرجح يد ناسخ غبى خشن .

كلا انه ليس بالنساخ الخشن بل هو ولتر سكوت يؤدى ما عليه من دين .

ويخر مريضا من الاجهاد ، ولكنه يقابل مرضه بروح رواقية . فان مهمة الرجل الشجاع أن يألم ويعمل . فلما عجز عن الجلوس صار يملى المخطوط من فوق مضجعه ، وكانت تمر لحظات يزم فيها اسنانه ألما ، ولكن لا تمضى النوبة ، حتى يعود الى الاملاء .

وماتت زوجته فنحاها عنه ، ما أشق الوحدة . وعاد الى عمله فكتب القصص والقصائد والتراجم . وها هو ذا يسدد ربع ديونه ، ثم نصفها ثم ثلاثة أرباعهـــا . ثم يتحطم عقله من الاجهاد ، كما تحطم جسمه ، فقد وقع فى وهمه انه سدد ديونه جميعا ، فما أجمله من وهم .

ولقد كتب فى ساعاته التى يعود فيها اليه عقله وصفا لرجل مريض هو أحد أشخاص قصصه فجاء فى الواقع وصفا لنفسه «المقعد الوثير ملىء بالوسائد ، الأطراف الممددة مدثرة بالفانلة ، الجلباب الواسع ، وقبعة الليل .. كل أولئك تنطق بالمرض لكل العين المظلمة التى كانت يوما تتأجج بالنار الحية ، والشفاه اللاغية التى كان تمددها وتقلصهـــا يسبغ روحا أى روح على محيـــاه الحى ، واللسان المتلعثم الذى كان يوما يفيض بالفصاحة فيضا ، والذى طالما حمل من حدثهم من الحكماء على تعديل آرائهم ، كل هذه الأعراض الحزينة أظهرت ان صاحبى

فى حالة الكآبة والحزن التى تعترى من بقيت لهم حياة الحيوان بعد أن فقدوا ذكاء الانسان » .

غير أن عقل سكوت ينهض فى الفترات التى تتخلل آلامه . فيتم قصة أخرى (روبرت الباريسى) ثم يتأهب للراحة . فالمحراث قد قارب نهاية الأخدود .

فبعث به أصدقاؤه الى رحلة بحرية فوق طرادة ، قدمتها البحرية مشكورة ، وجاء فيمن جاءوا لتوديعه لوردات وعقائل من علية القوم ، ورجل من عامة الشعب، كان اعجاب سكوت به فوق اعجابه بالجميع ذلك الرجل هو : وليم ورد سورث .

وقد بدا على ظهر السفينة روايتين جديدتين . فهو فى غسق النسيان كانت تواتيه بروق خواطف .

ثمة شيء لا بد أن افعله قبل الموت ، ثم سمع بموت جيتة ذات يوم ، فرجا الربان أن يوقف الرحلة ، فان جيتة على الأقل قد مات فى وطنـــه .. فهيا بنا الى أبوتسفورد .

بلغها فى ١١ يولية سنة ١٨٣٢ وكان لا يكاد يستطيع المشي . لكنه رجا ان يوضع فى كرسي أمام مكتبه ، قائلا : اعطونى الآن قلمى ، واتركونى لحظة وحدى غير أن ابنته حين وضعت القلم فى يده لم تستطع أنامله الانطباق عليه.

فنقلوه الى السرير ولبث به شهرين ثم أغلق عينيه فى هدوء تام (لم يستطع مثال قط أن يصور شخصا مستريحا أجل من هذا وأعظم) .

ولا عجب فى أن يبدو السلام عليه والطمأنينة ،فقد ادي دينه كاملا لدائنه فى السماء ..

أونورى دى بلزاك

(١٧٩٩ – ١٨٥٠)

– ١ –

كان فى طفولته يعزف على القيثارة ساعات متصلة ، وكان يحدث بها أصواتا غاية فى الايلام ، ولم يك يفهم علة لعدم شعور الناس بجمال موسيقاه . وكان فى المدرسة بدلا من الاقبال على الدرس يكتب مقالا عن « الارادة البشرية » ولم يدر لماذا مزقه المدرس فى ثوره .

وكانت عيناه المتسائلتان تبدوان قويتى النظرة ، حتى لقد حسب الناس أن الأحلام قد جرت عليه ذيل الغباء . ولكن أمه كانت من وقت لآخر تشده للعبارات العميقة التى تنطق بها شفتاه « أنورى .. محال أنك تفهم ماقلته اللحظة » ، كذلك قالت فى عجب لابنها الذى لم يتجاوز السابعة من عمره . وكان أونورى هو اسمه لأنه ولد يوم القديس أونورى فياله من تحد لطفـــل أن ينسب الى قديس ، بل وقديس من قديسى الشرف .

وكان أبوه كاتب تموين للجيش ، وكان يجمع فى نفسه كثيرا من « مونتانى ورابليه والعم توبى » وكان متفائلا حالما ، أورث ابنه مزرعة من الأحلام ولا شىء سواها . ويئس منه مدرسوه فى المدرسة الثـــانوية ، ونفضوا

أيديهم منه ، وتركوه لآفاق أحلامه « أن هذا الصبى السمين يسير فى حالة ســبات عقلى » كذلك كتبوا فى تقريرهم عنه . وخرج أونورى من المدرسة الى الشوارع واكثر من ارتياد المكتبات طلبا للأخيلة والحقائق ومرق كالخيال الى السربون وأصغى دون أن يلحظه أحد الى محاضرات الأعلام . لم يدر فكتور كوزان ولاجيزو الى أى مدى والى أى بقـــاع سترحل كلماتهم فى التاريخ والسياسة والفلسفة .

فدعته أمه وكانت امرأة فائقة الفطنة الى أن يعود الى هذا العالم . وذكرت له أن من واجبـــه دراسة القانون . فالأب بلزاك ، وقـــد بلغ الآن عامه الرابع والسبعين ، قد أدرج اسمه بين المحالين الى المعاش . وكانت الأسرة تجتاز ظروفا ضنكا ، وقد أوقفه داعى الواجب عن السير ذات يوم اثناء نزهته اليومية فى مقابر لاشيز ، وهى بقعة كان يحبها ويغذى فيها وحيه والهامه، ويصدر اليه فيها الوحى والالهام كأعمق مايصدران وفيها كان يزن أقوى آرائه ويبدأ فى خططه ذات الطموح الفذ .

فرجع الى بيته يعلن لأسرته أن « لست أبغى دراسة القانون» بل أريد أن أكون أديبا . « أذهب الى سقر!» وفكرت أمه وكانت لها عبقريتها الخاصة فى خطة لافاقة ابنها من أحدث أحلامه . فاخبرته أن ليس بوسعه أن يعمل فى المنزل لأن ضيق المسكن لا يتيح ذلك واستاجرت له علية تحت سطح منزل واثثتها بأقل الضرورات وهى انما تقدم هذه الهدية المزعجة ترجو أن تشفيه بها من جنون طموحه . فيبارك أونورى هذه الهدية ، فاذا جلس بين القذارة والهوام شـــعر أنه يقتعد عرش أجداده الروحيين .. ملوك القلم الجياع . نعم ولكن ما أمتع أن

يسلس لهواه العنان فينطلق فى اعظم احلامه .

أتي لزيارته صديق فوصف الزيارة هكذا (دخلت علية ضيقة تحت سطح منزل أثاثها كرسي لا قاعدة له ، ومائدة كسيحة ، وسرير بائس ، وستاران قذران قد اسدلا اسدالا نصفيا ، كانت على المائدة محبرة وكراسة كبيرة ملأى بكتابة عجلى وأبريق شراب الليمون ، وكوب وكسرة خبز، وكانت حرارة ذلك الجحر البائس خانقة ، وكان المرء فيه يتنفس هواء موبوءا) وكان بلزاك يجلس على سريره وعلى رأسه قبعة من القطن . « مرحبـــا بك يا صـــديقى فى ذلك المســـكن الذى لم أبرحه غير مرة واحدة طوال الشهرين الأخيرين فأنا طول هذه الفترة لم انهض من سريرى الذى لا أبرحه وأنا أعد الأثر الأدبى الرائع » وكانت على النضد تمثيلية قد تمت لتوها هى (الأثر الأدبى الرائع) الذى من أجله كان المؤلف يحس النعيم وسط كل هذه القاذورات .

وأخذ بلزاك يوما هذا الأثر ليقرئه اسرته فلم يسمع استجابة استحسان وجاء به ثقة من ثقات المسرح فى الأكاديمية الفرنسية وقال له .

هل تتفضل ياسيدى بقراءة ذلك المؤلف وترشدنى ماذا أفعل فى المستقبل . فقرأ السيد المخطوط وأجاب :

افعل أى شىء فى المستقبل غير الكتابة الأدبية . فلم يزد اونورى عن هز كتفيه وهو يقول :

يخيل الى انى لا احسن المأساة .

ولـكنه أقام على الـكتابة فى عليته فهو قد عجز عن احزان العالم فقرر أن يمتعه . لقد فشل في تأليف مآسٍ

ملهمة فليجد فى الكتابة ليصيب رزقا فحسب . فكتب قصصا مثيرة للمجـــلات الخفيفة . ان رأسه لمحتشد بالخطط .. لكن قلبه وجيبه خاويان .

كتب الى أخته يقول « انى جوعان يالور هل تتحقق الرغبتان الكبيرتان اللتان أصبو الى تحقيقهما وهما أن اكون شهيرا وأن أكون محبوبا ؟ » .

فانطلق يعمل فى اندفاع متوهج ويصوغ القصص على غرار ثابت فهو يكتب ستين صفحة كل يوم . وما هى الا ثلاث سنوات حتى أكمل واحدا وثلاثين كتابا من كتب المغامرات نشرها بأسماء مستعارة ، ولكن اسمه ظل غير مشهور ولا حبيب . وكان دائما يتقاضى حقوق التأليف صكوكا مؤجلة الدفع . وكانت ديونه أيضا وعودا مؤجلة السداد . فهو على نحو ما عاجز تماما عن أن يسيطر على الحاضر . ولما استمرت ديونه متفوقة على دخله أبدا ، شعر أن عليه اتمام قصصه الحالمة أسرع فأسرع .

ولكن وضح أخيرا للحالم أن عليه أن يجد عملا آخر ، لأن الأحلام المتعة انما توافى الأحشاء المليئة المدثرة فى دافىء الثياب . كان بحاجة الى دخل آخر غير الكتابة فأراد أن يصيب مرتبا أسبوعيا . لكن كيف ؟ نعم ان لديه رأسا مليئا بالخطط ، وهو يستطيع الشروع فى خطط باللسان تفتن ألباب الناس . من هذه الخطط أن يجعل من نفسه ناشرا .

كان يتحدث عما يعتزمه من مغامرات بايماءات شديدة العنف ، وحماسة بالغة الشغف ، حتى لقد اشترى له احد الأثرياء دارا من دور النشر ، واندثرت الدار كأنها فقاعة من فقـــاعات الصابون . لـــكن الممول الذى خسر سبعين ألفا من الفرنكات فى هذه الصفقة كان لا يزال

مسحورا بفصاحة بلزاك وذلاقته ، وقدم بلزاك الى أخيه وكان غنيا أيضا فأحال الناشر طابعا .

وأصاب مشروع الطباعة ما أصاب مشروع النشر من انهيار ، بفضل توجيه بلزاك . فقد أغرى أصدقاءه بأن يشتروا له مسبكا للحروف . وسرعان ماقاده الى الدمار، وأقبل عليه أقرباؤه يقدمون له من المال ما يكفى لانقاذه من الافلاس وانقاذ أسرته من العار .

وأنشأ جريدة ذهبت بددا مع أحلامه . ثم عاد الى الكتابة يقهقه مرحا . كلا انه فى الواقع لا يحمل ضغنا لأحد ، والحق أنه سوء حظه وخيانة معاونيه ـ كما شعر مقتنعا ـ هو ما أسقطه ، فالمؤكد أنه لم يكن قط خاطئا فى أى شىء . لكن لماذا يهم نفسه بهذه المسائل ؟ انه ليبلغ بأحلامه أقصى السعادة . أهو مدين بمائة الف فرنك قبل أن يبلغ الثلاثين ؟ فليزين حجراته بشيت أزرق فان اللون يزدهيه . ويكتب الى أخته ، وكان عسيرا عليه أن يجد رسوم البريد « آه يالورا لو أنك فقط تعلمين كم أتحرق شوقا الى (لكن صه ! احفظى السر) ستارتين زرقاوين موشاتين باللون الأسود (صمتا دائما) ومهما يبلغ منه العذاب والارهاق فانه لا يستطيع أن يخلص ذهنه من الستارتين » .

كان يتمتم فى نومه « الستارتان دائما » انها فكرة ثابتة متأصلة ، ماذا يهم أن تخلو معدته من الخبز ؟ ان لديه شيئا أهم منه بكثير ، ففى روحه الجمال ، وانه فى وقت العشاء ليمسك بقطعة من الطباشير ويرسم على نضده دائرة تمثل طبقا ثم يكتب داخل هذا الطبق اسم طعامه .

وكذلك كان يصوم ويلوك ويزدرد أغرب الأطعمة التى استطاع عقله أن يحيل رموزها الى حقائق . وان اللعاب ليوافى فمه ودموع السعادة لتثب الى عينيه . لكن هناك لحظات كان اليأس فيها يمسك بتلابيب قلبه . فى هذه اللحظات لم ينقذه من الانتحار غير حب امرأة وذكائها ، كانت تزيد عليه كثيرا فى السن . لقد أقبل عليها فى لحظة من أحلك لحظاته « لا تعزينى لا فائدة من العزاء ... ! انى لمنتحر » وما هى الا كلمة ترفيه وتعجب حتى قال « يا الله انك لعلى حق ! ان عبقريتى ستكفل لى الحياة » .

وفى تلك الأثناء كانت عناية الله تهدبه وترأمه . وكان يسير فى طريق التوفيق فهو على الرغم من كل ما يعتور حياته من اضطراب وتشويش سيصل الى مأربه . وان الكمية السخيفة من قصصه لتصوغ عقله على نحو خاص . فهو فى المه وديونه التى تخزه وخز أطراف السنان ، يحصل على علم عميق بالعـــالم ورحمة كبرى بالألم والعذاب ، فقد تمخض طموحه الدفاق وكفاحه المستعر عن الهام الفنان ، حلم قصير قصر الحياة والموت ، عميق كالهاوية ، عظيم كاصطخاب البحر .. دعاء الى العمل ، والأفران كلها موقدة ونشوة التفكير تخفى مايستقبل من متاعب . ذلك هو وحى الفنان الذى هو اداة متواضعة فى يد ارادة تبدو أوفر الأشياء نصيبا من الحرية ، وان كانت فى الواقع لا نصيب لها من الحرية على الاطلاق .

ـ ٢ ـ

هذه روايات وقصص اصدرتها المطبعة باسمه الحقيقى الآن ، قصص عن الطبقة الوسطى الناهضة من أصحاب

المتاجر والصيرفيين والنشالين ، وعن الحضارة التى تعبد المال وتسير بالبخار . وضحك بلزاك ملء شدقيه مرحا من تلك الضجة التى أحدثها « لدى أنباء طيبة أخبرك بها يا أختى الصغيرة . لقد زاد ما يدفعه المحررون لى عن مقالاتى ويخبرنى (وردت) أن « طبيب الريف » قد نفدت نسخة فى ثمانية أيام . ها ها ! بذلك أستطيع أن أبرز لسد الديون المستحقة فى نوفمبر وديسمبر تلك الديون التى تزعجك وثمــــة ملايين كثيرة ستدرها على (أوجينى جراندى) » وجعل يحلم بنفسه جالسا فى المعهد، وفى مجلس الأعيان ، وفى الوزارة و « لم لا يوجه المؤلفون والحالمون دفـــة الحكومة ؟ وهل أحق بحكم الناس ممن جابوا آفاق الفكر ؟ بودى أن أرى ذلك الشخص الذى يدهش اذا عينت وزيرا » .

ثم يطل فى دفتر صكوكه ، فيخبو الضوء الوردى من احلامه . وكأنه كلما كتب زادت ديونه ، وهذا تحــد هائل لقوانين المنطق . فجعل يذرع الحجرات التى أثثها حين بدت أول بارقة تشير بالتوفيق . وعمــــرها بكتب رائعة ومقاعد أثرية منقوشة . وأجمل آثار الفن وآنية من خزف السكسونيا ، وأنسجة صينية موشاه بالصور . ويعود منهكا الى عمله ، يكد وسط المبـــاهج من أجل الكونتيسة ب .

ويكتب عن أعظم المحتالين وأفجر الفجرة ويطلق روائح المجتمع العفنة ثائرة وكأنما قد أطلق الرياح من حقيبة ايلوس . وكان يجلس ويعمل فى عطاف أبيض كأنه راهب من رهبان الدمنيك ، ويلبس حذاء من الجلد الأملس الأحمر الموشى بالذهب . ويلف حول جسمه البدين سلسلة ذهبية من طراز البندقية ، تتدلى منها أداة مذهبة لطى الأوراق ،

وسكين ذهبي ، ومقص مذهب . وهو يشرب جرعات عديدة من القهوة التى تغلى ليظل يقظا . وكانت الكتابة طقسا جليلا كأنه القداس .

كانت الكتابة تبدأ فى الساعة الثـــانية صباحا حين يستيقظ الـكاهن الأعظم من مضجعه ويتناول قلمه .

وفى ضوء شمعات أربع يتأمل البذاءة غير المقدسة التى تطفح بها مآدب باريس من ضحايا الحب والفضيحة . وفى السادسة صباحا يستحم ويشرب عدة أقـــداح من القهوة . ثم يصحح تجارب الطبع . ومنـــــذ التاسعة صباحا حتى الظهر يهرع الصبية عائدين من المطبعة الى المؤلف محاولين حل طلاسم الصفحات التى كتبت على عجل والصلبان والنجوم والأسهم المتجهة صوب الألفاظ الجديدة ، حتى بدت صفحات التجارب كأنها كتاب سرى لمنجم فى القرون الوسطى .

كد من اجل الترف ، وعين الى الجمال رانية صافية . بحيث لا ترى الأضواء والظلال فى النساء ذوات الأثر فى ســـعادته . فهو أن يكن فى تواليفه أستاذا فى تاريخ القلب ، فانه غر ساذج لا يفهم أبسط النساء فى حياته . انهن ترف كثيف يخدعه لونه ، ولا يسمح لعقله بالنظر من خلاله . فهو يولع ولعا جنونيا بماركيزة « كنت ذات مساء كل شيء لها حتى اذا كان النهـار كنت لا شيء .. ففى خلال الليل ماتت تلك المرأة .. التى أحبها » .

ثم كانت سيدة أجنبية تقيم بعيدا عن المجتمع فى قصر ببولندة . ولم يكن لديهـا شيء تفعله فكتبت اليه خطابات غرام فى روح متصوفة . وقابلها سرا فى سويسرا وتبادل واياها القبلات تحت سمع زوجها وبصره ، وأنفق

ثمانى عشرة سنة من أمله وقوته وحياته على الكونتيسة وراء الفستولا التى لا تبادله الغرام .

« العمل والعمل دائمـــا » . ليال حامية تليها ليال حامية . أيام تفكير فى اثر أيام تفكير . وتنقل من التنفيذ الى الخيال ومن الخيال الى التنفيذ . فان شراء قصر ومعيشة البذخ لأمور نبلغ فى يسرها تأليف قصة . لن أحيا حياة الأوساط بينا افكر تفكير الآلهة : ها ها ! هذا هرم صغير من المال ، قوام الحياة . وما هى الا أسابيع قليلة حتى ذاب الهرم .

فاذا بلغ عامه الأربعين كـانت ديونه قـد بلغت مائة وسبعين ألفا من الفرنكات وانه لرقم سريع القفز بلغت ارباحه وحدها ستة آلاف من الفرنكات فى العام .

وانه ليأمل العصا الذهبية فى يده ، ويتنقل فى عربة مكشوفة ذات دولابين ، يجـــرها حصان يخطر فى خطا عالية ، وقد جثم الى جانبه نمر صغير أليف . ويؤلف رواية فى ثلاثة أيام ، ويتم اخرى فى ستة أسابيع لم ينم خلالها غير ثمانين ساعة ، بمعدل ساعتين فى اليوم . ثم تعتوره فى حديقة خليلته تلك الرشيقة نوبة ارهاق تخور معها قواه .

فلما قصرت قصصه عن أن تغل المال الكافى ، ولى وجهة شطر المسرح فألف مسرحية فى ستة عشر يوما كان مصيرها الرفض . ثم أودع فكرتها مسرحية أخرى فقبلت الفكرة . فما أسرع ما أرسل يستدعى جوتيير وصاح نافد الصبر حين وافاه جوتيير (ها قد جئت آخر الأمر أيها المكسال المترهل ؟ كان يجب أن تكون هنا منذ ساعة . غدا سأقرأ لها ريل مسرحية عظمى من خمسة فصول) .

« أتريد أن تقرئنى المسرحية وتسمع رأيى ؟ » هكذا قال جوتيير وقد اتخذ له مقعدا وتأهب لسماع قراءة طويلة . فقال بلزاك فى بساطة « ان المسرحية لم تكتب».

« يا الله ! اذن يجب ارجاء قراءتها أمام المخرج ستة اسابيع » .

« كلا يجب أن نسرع فى كتابة المسرحية والحصول على المال . فان على دينا فادحا يجب اداؤه . انصت الى ياتيو . هكذا دبرت أمرى . ستكتب أنت الفصل الأول . وسيكتب أورلياك الفصل الثانى ويكتب لورنت الفصل الثالث ويكتب الرابع دى بالوى وأكتب أنا الخامس . ثم أقرأ أنا المسرحية كلها لهاريل غدا الساعة الثانية عشرة كما اتفقنا » قال جوتيير « اذن فاذكر موضوعها واشرح لى أحابيلها وصور شخوصها فى بضع كلمات حتى أستطيع أن أشرع فى العمل » .

فصاح بلزاك فى ايماءة رائعة « آه . ان كان على أن اروى موضوعها لك فلن ننتهى » .

ومع ذلك فان المسرحية قد كتبت . ويصفه لنا أحد أصدقائه فى أثناء تجربة (تمثيل الرواية) وصفا حيا « كنت تكاد تنكره من الضنى والاعياء . وأصبح قلقه وتشويشه أمرا يعرفه الناس جميعا . فكان الناس ينتظرون أمام باب المسرح ويشهدونه يندفع فى الشارع وقد انتعل حذاء ضخما يخرج لسانه من السروال ولا يستكن فيه . وكانت جميع الملابس التى يرتديها تبلغ ضعف الحجم الذى يلائمه ، ويغشاه الطين من الشوارع » .

وكتب قبيل تمثيل المسرحية « لقد قاسيت شقاوات

كثيرة ، ولكن شقوتي كلها تنتهي اذا أصبت النجاح . تصور قلقي وتوجسي يوم تمثل مسرحيتي فوتران لن تمضي خمس ساعات حتى يتقرر هل أستطيع أداء ديوني ام لا أستطيع » .

ولم تنجح المسرحية . فقد صمم وغد القصة على أن يمثل دوره هازلا متفكها ، فهو اذا خلع قبعته بان منه شعر مستعار على شكل هرمي . وهو كساء للرأس لا حق في استعماله لغير الملك لويس فيليب ، فغـادر دوق أورليانس مكانه . وبرح المسرح وكان من العسير اتمام الرواية ازاء ماحـدث من الضجة وما سمع من صفير الاستهزاء وما تردد من تهـديد الجمهور وتوعده ، وما اسرع ما حظر الرقيب الرسمي تمثيل هذه الرواية .

ولكن بلزاك كان مطمئنا جهد الاطمئنان في أثناء حفلة الافتتاح تلك . فانه لفي سبات عميق على أريكة عند آخر المسرح وقد اشتمل عليه حلم جديد .

- ٣ -

حلم جديد آخر وانهيـار مالي جديد . فيهرب من دائنيه متنكرا في ملابس امرأة وقد استخفى بأقانين التزين ، وجعل يتنقل في سرعة بين حجرات الأسطح ومزارع الريف حسبما شاءت الريح ، وجعل يتسلل الى منازل أصدقائه ويتحدث في الأخلاق والأدب والحب فيما بين الخامسة مساء والخامسة صباحا مع « جورج ساند » تلك النابغة الأخرى من نوابغ القرن . ثم يظهر له كتاب جديد وتتراكم عليه ديون جديدة .

فيدعو ناشريه بالعقبان التي تنهش لحوم برمثيوس

ويكتب اليهم قائلا: «سيحل يوم قريب تنالون فيه الثراء على يدى ، ســــتذرع عرباتنا غابة باريس وسينفجر أعداؤكم وأعدائى حسدا » . صديقكم : ا . ب .

وتلى ذلك حاشية بخط بالغ الدقة « وبهذه المناسبة ياصديقى . انه لم يبق لــدى مال ، لذا اقترضت مبلغ ١٥٠٠ فرنك من روتشيلد وكتبت بذلك المبلغ صكا باسمك، يستحق الأداء بعد عشره ايام من رؤيته » .

ولكنه ظل مقيما على الأمل فى أن مشروعا تجاريا سوف ينهض به على قدميه ، وسوف يسعه أن يحلم وهو على رفرف النعيم . وكان قد عرف من مطالعاته أن الرومان الأقدمين قد استخرجوا الفضة من مناجم لهــــا فى سردينيا ، وكان على يقين من أن هذه المناجم لا تزال بها فضة يمكن استخراجها . وحدث بهذه الفكرة أحد التجار وعقد معه شركة . وقرأ فى الصحف ذات صباح أن شريكه قد تعاون مع بعض الوكالات الحكومية على استغلال مناجم سردينيا دون مشاركة بلزاك . ولكنه يقيم على حلمه المتفائل ، ويوقظ صديقيه جوتيير وساندو ، فى ساعة متأخرة من الليل ، ويخبرهما أن صوتا وافاه وهو فى غيبوبته وأن ذلك الصوت قد حدد له المكان الذى خبأ فيه Joussaint L'ouverture كنزا ، وظلت الفكرة لسوء الحظ — لا تعدو مجالها النظرى ، فان أحدا من الكتاب الأفاقين لم يتهيأ له من المــال ما يذهب به الى هايتى .

ولــكن يمضى بلزاك فى خطتــه ، فيعقد شركة مع صهره . ويبتكر نظام السطوح المائلة للسكة الحديدية ، ويحلم بانشاء ترع من نانت الى أورليانز . وبنقل شجر البلوط من بولندا الى فرنسا ، وبزراعة فدان من أرض

المدينة أثاثاسا . ليته فقط يحصل على بضعة آلاف من الفرنكات يبدأ بهـا مشروعه . ويجمع أقـوال نابليون ويبيعها بأربعة آلاف فرنك لبائع قبعات ، حسب أنهـا قد تعينه على نيل نوط الشرف ، ثم قرر الحصول على احتكار لصناعة تماثيل أوربا وانســجة أوربا الموشاة بالصور ونقوشها ليبيعها للعالم . فسوف يشترى مثلا : (أبولو بلفدير) ويدع أمم الأرض قاطبــة تتنافس على شرائه . ألا ليت له فقط منزل ريفى صغير ! .

وذات يوم يمتلك منزلا . ولكنه يخشى تكاثر دائنيه اذا سمعوا بما أصاب من ثراء . فهو يقول لكل زواره (انى لا أمتلك من ذلك شيئا كما تفهمون ، فهذا منزل أصدقائى وأنا أخدمهم) .

« من أولئك القوم العجيبون الذين يقطنون هنا وقد اتخـذوا أونورى دى بلزاك خادما لهم » ان حجرات المنزل تكاد تخلو من الأثاث وان جدرانه المطلية بالجبس الناعم لتحمل على ابعاد منتظمة أروع الأوصاف (لأشياء غير موجودة) قد أثبتت على عجل بخط يعرفون صاحبه حق المعرفة : « هنا رخام بارى مطعم » « وهنا لوح مقاطع لفتحة الموقد من رخام كارارا » وعلى السقف « هنا نقش لأوجين دلاكروا » وعلى الأرض « هنا أعجب ما أبدعت يد انسـان من طلاء بالألوان المائية والفسيفساء ».

ويحمل بلزاك فى يده عصا ذهبية وعليها الشعار التالى مترجما من التركية (قاهر الصعاب جميعا) .

وتفد اليه رسالات بالغة العجب وتستحوذ على ذهنه فكرة أنه مغنطيس فيعتقد أن شأنه كشأن القطب المغنط ويعلن أنه اذا حصل على سر معين استطاع أن يأمر كل

انسان بطاعته وكل امرأة بحبه .

كذلك جمل يحلم بألف رواية هزلية وينفذ الى النزعات البشرية وينسج بساطه الوهمى من الأرض الى السماء على قوس قزحى عربى الطراز . فهو ان كان من قوم يكدحون فى النهار فانه ينظر الى نفسه على أنه عضو فى الطبقة الوحيدة النبيلة حقا .. فهو أخ فى الملك لهارون الرشيد أمير من أبدعوا نسيج القصص وامتعوا الناس .

واى ذخر من الجمال ذلك الذى يطالعك فى نسيج قصصه . انه لا يخشى ان يتهم بالمبالغة . حتى ليقول ان الرذيلة ان هى الا الرغبة فى معرفة كل شىء . وهو يربط مصيره بمصير فوست . فلقد برىء من كل خداع حق فى أمر العالم . فهو فى اقصى خيلائه سيموت كما تموت الحشرة المزخرفة قد أخذت زينتها لموسم الحب . ولم تلبث أن سحقتها قدم عابر سبيل . فتتساءل أنت فيم اللهفة هذه كلها على البهرج الباطل اذن ؟ بربك ليس هو البهرج مايعنينا وان بلزاك ليناجى روحه وقل من ملايين الأصدقاء من سمع نجواه « ليست بى من الفقر خشية ولولا أن العار وزراية الناس تصبان على المتسول لتسولت واستجديت الناس لاستطيع أن أحل فى سلام تلك المشاكل التى يزخر بهـــا عقلى . وانى فى بعض الأوقات لأقبض بيدى على عالم الفكر واعجنه وأشكله وانفذ من خلاله واعيه .. ولكن المرء الذى يسبق زمانه بقرنين يختم حياته على المشنقة .. من أجل ذلك احتفظ بحـــدائقى ومشروعاتى المالية لأنيم وأخدع تلك الروح الشريرة التى قد تنصب المشنقة لرجل ممزق الثياب .. بربك .. لأصيحن بالحق فى ســكونى . فليقم الملائكة مصحات للأرواح المعــذبة . ولكن حتى يفعلوا سأشيد

للأرواح المعذبة قصراً من الاحلام » .

— ٤ —

واتت خياله فكرة هائلة حينما كان شابا حالما قد سلخ من حياته الشاذة الأطوار ثلاثين عاما ، هى أن يؤلف سلسلة من القصص ، تكون فى مجموعها مسلاة انسانية كاملة من نوع ملهاة النماذج الاجتماعية . فهرع الى منزل أخته كما كان يفعل دائما اذا اشتمل عليه حكم كبير . وأقبل كأنما هو كبير الزامرين فى الجيش . فهو يحكى الموسيقى العسكرية اذا هدرت وضربات الطبول اذا قرعت . ثم هو يصيح (يا صغيرتى هنيئنى) .

وجعل يختف الى عمله يهمهم بالنغم . ويربت على أكتاف الأصدقاء . فهو يؤدى دور المهرج السعيد بينا فكرة مغامرته الشاعرية تكتمل نضجا . ومهما تختلف عليه البهجة والضيق ، والأبهة والافلاس . ومهما يبلغ اضطراب أمره فى المسائل العملية فهو لا يحيد عن مهمته طيلة عشرين عاما .

لقد ألف غيره من القصاصين كتابا أو كتابين أو عشرة ، هى نتاج موقوت لفنهم حين يستوى للفن مزاجهم ، لكن اى القاصين قد حلم بكتابة ستة وتسعين كتابا كل منها خط يشارك فى اتمام صورة مسلسلة متتابعة للحياة . انهـــا المهزلة البشرية للأرض .. وصيفة المهزلة الالهية للسماء التى كتبها دانتى .

ولكن ما كتبه بلزاك كان أكثر من كتابة « معارضة » لملحمة دانتى . فهو فنان يحيا فى بيئة يسودها العلم الحديث ولا يحكمها ايمان القرون الوسطى . فدبر أمره

على أن يدرس مملكة الانسان كمـــا درس بوفون مملكة الحيوان . فيكتب بحثا شاملا في التشريح الخلقي المقارن للجنس البشرى ، ولم لا يفعل وقــد صنفت الحيوانات اصنافا . ورتبت في أجناس وانواع ، وما الجنــــود والعمال والأساتذة والساسة والتجار والبحارة والشعراء والمتسولون والقساوسة الا نماذج يتميز بعضها من بعض تميز الذئاب والأسود والنسور والغربان والقروش بعضها من بعض . فالانسان تحكمه النوازع ذاتها التي تحـــكم الحيوان ، وعلى الأخص دافع المصلحة الشـــــخصية . والأدب انما يجمل الانسان ، والنفاق يزوره فالحيوان باق في الانسان وانما يختلفان في أن عقل الانسان أرحب من عقل الحيوان ، لذا كبرت حاجاته وعظمت مخاطره .

وهكذا أقام في متحف التـــاريخ الطبيعي البشرى صوره للبشر كاملة ، تنتظم آماله ورغائبه ومطامحه وكفاحه ومنافساته وغرامه وضعفه وملقه ومخاوفه ، هى صورة شاملة لوحشية الانسان كلها فى حكم نابليون الأول ولويس فيليب . وكان بلزاك شـــــديد الاعجاب بالكورسيكى الضئيل . وكثيرا ما طاب له أن يقارن نفسه بنابليون فذلك الرجل جنـدى ينـــاضل بالسيف وأنا جندى اناضل بالقلم . « ولكنى سأنجح حيث فشل نابليون . فلسوف أغزو العالم » .

وغزت (المسلاة الانسانية) العالم فعلا . فهى تقدم عالما جديدا يشتمل على طبقة جديدة .. هي الطبقـــة الوسطى . انهم رجال جدد لهم مهـام جديدة . وآمال جديدة ودين جديد ، دين الديمقراطية الذى يؤمن بالرجل العادى ، فالكادح في المنجم وقد اتخذ على وجهـــــه قناعا، والعامل وقد ارتدى سرواله الثقيل والتاجر وقد

وقف وراء خزانته ، هم أبطال الأدب الجديد ، والطبقة الجديدة ، والحياة الجديدة . لقد كتب اسكلس وشكسبير وكورنى تمثيليات تدور حول النبلاء والملوك ، فيعلن بلزاك تحديه لقراء هذه القصص بقوله « ان قصصى البرجوازية لتحمل من الأسى ما لا تحمله مآسيكم التمثيلية » .

وبلزاك كشكسبير يفتن فى تلوين كل طائفة من طوائف الخلق البشرى ، فلا يألوها اضاءة ولا تظليلا ، وهو كشكسبير فى مناعته على العدوى بالأمراض العقلية والاسفاف الخلقى الذى شاء أن يتناوله . فهو يصور تحلل النبلاء وانهيارهم وظهور الطبقة الوسطى التى تنتظم الصيرفى وطالب الكسب والعصامى ، وجاءت قصصه ملحمة للشهوة المادية يسودها ظمأ غلاب الى النجاح المادى . كتبها أمير شعراء النزعة الرأسمالية . فالمال هو المقياس الوحيد لقيمة البشر . فهو دم الحياة يجرى فى عروق أشخاصه ، فيمد الرئتين بالهواء ، ويمد العقل بالغذاء ، ويمد القلب بالايمان . ان رنين الذهب هو موسيقاهم وشعرهم وفلسفتهم ودينهم وحياتهم وهو المادة التى تصاغ منها أحلامهم . وتحت طلسمه السحرى يبدعون الجمال ويقترفون الجرائم (وفى سوق الأوراق المالية تدور معارك البطولة وتجرى الخيانات الفاضحة . ان المال ليتكاثر والنقود تجذب النقود ، وقطعة الفرنكات الخمسة تحسد الفرنكات العشرة وتكافح فى سبيل التكاثر . ان المال هو قرة الكون التى تحكم الأرض . هو بروسبرو وكاليبان . هو الله والشيطان اللذين يتأرجح بينهما العالم) .

ويتنقل بلزاك مزهوا بين حجرات الزائرين وقاعات التجارة ، ويهتك حجب النفاق التى تقف دون شخوصه ،

ويظهر على ارواحهم ، ولكنه يزدرى أن يصدر عليهم حكمه اذ كيف يحكم ؟ ان الانسان ليصف الأشياء جميعا أوصافا مجردة ـ طيب شرير فاضل مرذول ـ وهى ألفاظ يختلف مدلولهـــــا باختلاف الناس ، فأحكام الناس عمياء . « وليس من مبصر فى حكمه غير الله » وما شأن ارضنا هذه الحمقاء ؟ أهى جزء من كون احمق ؟ يجيب بلزاك عن هذا السؤال سلبا .

ان الكون ليسير نحو غاية منطقية . وليست هــذه الغاية مجتمعا على شاكلة مجتمعنا . فان الهوة بيننا وبين السماء سحيقة مخيفة ، وليس الانسان مخلوقا كاملا والا لما كان الله . ومع ذلك فمن كل هذا ، من شكل مجتمعنا ، ذلك المجتمع الذى يعد حب الانسان أكبر الأخطاء ، والتقدم صيحة جوفاء .. وضعت يدى على الحق الصراح . ان الحياة انما توجد فى داخلنا ولا وجود لها خارجنا . وان ارتفاعنا فوق مستوى أفراد جنسنا بقصد أن نتحكم فيهم ، ان هو الا تضخيم لعمل المدرس . ومن أمكنته قوته أن يسمو الى حيث يرى السماء . فأخلق به الا يدير بصره الى قدميه .

وفى ضوء هذه الفلسفة ، قسم بلزاك سكان العالم لا الى ابطال وأوغاد ، وأخيار واشرار . بل قسمهم الى فعالين ومفكرين وقديسين . وأدنى هــذه المستويات مستوى الفعالين ، من المحاربين والتجار ومبدلى النقود . وأبطال الدفع والجذب . ويليهم رجال الفكر من العلماء والأساتذة والفلاسفة والمدرسين والمرشدين ، ثم يأتى أهل الخيال من الشعراء والفنانين والموسيقيين والأنبياء ومنقــذى العالم . فقد قدر للانسان ـ فيما يرى بلزاك ـ أن ينهض من العمل الى النظر عن طريق التفكير المجرد ، فاذا بلغ

المرحلة النهائية عاد اللحم المادى الى أصله المقدس .. عالم الله الروحى .

ولم يتم بلزاك خطته العظيمة قط ، فهو فنان أكثر منه صانع . ولا يستطيع أن يتم مهمته غير الصانع . فلقد كتبت كل قصص المهزلة الانسانية فى كدح أليم وأسلوب غامض ، وكثيرا ما كانت نيران الهامه يغشاها السحاب من تعقد التعبير . لكنه ظل حتى آخر أيامه يجهد فى ابداع آيته وترك منها صرحا ، زاد فى روعته أن قوته لم تكتمل .

— ٥ —

فلما قارب الخمسين كتب القدر الفصل الأخير من المهزلة البشرية لحياته الخاصة . فان الكونتيسا هانسكا التى كان يتبادل القبلات واياها فى الخفاء طيلة اثنى عشر عاما قد فقدت زوجها ، وأمكن آخر الأمر أن تكون له . فكتب اليها فى هذيان مستمتع « لن أكون مدينا بدرهم واحد ياعزيزتى ، ساصيب من أعمالى خمسمائة ألف فرنك . دعك مما تدره (الملهاة البشرية) مما يزيد على ذلك المبلغ . وهكذا أيتها السيدة الجميلة ستتزوجين مليونيرا أو أكثر ان قدر لى أن أعيش » .

واتخذ له منزلا . وابتاع الصحاف والطنافس والحرير ، والأنواط والساعات والصور والماثلات ، واعدها كلها . ولم يبق الا اخراجها من صناديقها عشية زواجهما . اعد هذا المنزل ليكون مأواهما فى شهر العسل . وجعله تحفة رائعة تنتظر قدوم مليكته .

لكن مدام هانسكا كانت قد ملت هونوري دي بلزاك

منذ أمد طويل ، وهى الآن لا تأبه مطلقا لتلك العبقرية التى كانت موضوع عبثها ساعات الفراغ . فظلت خمس سنوات أخرى تتأبى عليه ، ثم ضاقت بحصاره اياها فتزوجته . فكتب بلزاك الى اختـــــه « لقد بلغت قمة سعادتى فانى الآن فى أوج أحلامى » .

ثم أفاق من سكرته فألفى سيدة أحلامه امرأة نصفا ، متورمة الساقين والذراعين من النقرس ، وكثيرا ما كانت تعجز عن السير . لكنها لم تشعر أنها تقل شيئا عن أمير قلبها ، وسر ذلك عندها وعند طبيبها . فبلزاك يوشك أن يموت .

فاذا بلغنا شهر مايو ، شهر الحيـاة والحب . كان فكتور هيجو يزور زميله فى الأدب ، فكتب تلك العبارة الوجيزة « تزوج وهو غنى على أبواب القبر » ان استنزافه التام لنشاطه ، وهو نشاط لم يعرف تاريخ الأدب له مشبها قد حطم جسمه القوى آخر الأمر . وكان بصره أول شيء ذهب ثم انحطم قلبه واســـتقرت فى رجله الغنغرينا .

انه فى شهره الأخير ، فنراه مختبأ فى منزل فخم ، وقد استلقى على أريكة يغطيها الديباج الأحمر والمذهب ، وقد اصطبغ بلون الأرجوان من الألم وتعفنت ساقاه . ولكن رأسه لا يزال بركانا يقذف بالمشروعات ، انه لمولع بالأخيلة لكنه يدعها الى أحلام تفوقها جمالا .

وفى يومه الأخير جاءه فكتور هيجو يقدم تحياته . دخل منزل الرجل الضئيل الخرافى ، وحاول أن يقرأ سر الحياة فى وجه يموت ، لكنه لم ير شيئا غير الموت والتحلل . وكان بحجرة الاستقبال تمثال نصفى ضخم للكاتب ، وكان

هذا التمثال الرخامي النصفي أشبه شيء بشبح الرجل الذي يموت « فاذا دنوت من المضجع رأيت منظره الجانبي وكان يشبه نابليون . وكانت ممرضة عجوز عليلة على أحد جانبي السرير ، وعلى جانبـــه الآخر خادم رفعت الغطاء . وأخذت يد بلزاك . وقالت الممرضة : سيموت حول الفجر » .

مات في الليل . ولا مراء أن فرنسا كان يخيم عليها الليـــل ، فالنـــاس لم يكادوا ينتبهون لموته . لـكنهم لم يمنحوه تمجيدا ولا تكريما حتى في حياته ، فحين تقدم لعضوية المجمع الأدبي الفرنسي ، أوصد القوم المتعالون الباب في عنف دون ذلك « الجلف الفلاح » .

فالمجد ــ كما قال بلزاك ــ « هو شمس تشع على الموتى » .

إسكندر ديماس «الأب»

(١٨٠٢ ـ ١٨٧٠)

ـ ١ ـ

كان اسكندر فى الرابعة من عمره حين مات أبوه ، وخرجت أمه من حجرة الموت ، فرات الطفل يصعد الدرج وقد جر وراءه بندقية ثقيلة .

« الى اين ايها الطفل ؟ » .

« ذاهب الى السماء » .

« يا عجبا .. لماذا ؟ » .

« لأبارز الله .. فقد قتل أبى » .

وكان اسكندر منذ طفولته الأولى أشبه بالفرسان الثلاثة ، محاربا متهورا يجاهد صعابا غزيرة المنال . فقد تحدر من أصلاب قوم من المغامرين والمحاربين . ولبى جده الأرستقراطى (دافى دلابايترى) نداء الدم فأبحر من نورمانديا الى جزيرة سان دومينجو . وعاش فيهـا حياة الأباطرة ، يحوطه رهط من الأرقاء السود وقـد ولدت له احدى الاماء ، لويزا ديماس ، ابنا أسود ، أسماه (توماس اسكندر) وقد ورث ابن دافى دلابايترى هـذا فوران أبيه وتهيجه :

« اريد لاتطوع فى الجيش » .

فقال له أبوه : لا باس . لكن يجب ان تتطوع باسم أمك . فانه ليشقينى أن يحمل جندى أسود اسمى ذاك الشريف (دافى دى لاباترى) .

وهكذا انضم توماس اسكندر الى الجيش الفرنسى عام ١٧٩٣ باسم ديماس . وما هى الا سبع سنين حتى رقى من رتبة النفر الى رتبة القائد . ياله من رجل محارب ظريف عجيب شجاع دمث مفكر . ذلك الأرستقراطى الاسود ذو البشرة السوداء والشعر الكستنائى . لقد هاجم البرانس ، وأخذ الفى اسير ، ودافع وحده فصيلة نمساوية عن احدى القناطر ، وكان دائما يحارب فى مقدمة رجاله .. ولقد أغمى عليه مرة بعد معركة فأشرف على الموت ، فسأله مساعده حين فتح عينيه :

« هل جرحت أيها القائد ؟ »

« كلا .. ولكنى قتلت كثيرين جدا » .

كان يحارب تحت امرة نابليون بوصفه جمهوريا متوقدا . وظل جمهوريا متوقدا حين نصب نابليون نفسه دكتاتورا .. فطرد من الجيش مجللا بالاهانة والتحقير . فى هذه الأثناء كان قد تزوج وأنجب طفلا قويا كأنه الرجل، وزنه تسعة أرطال وطوله ثمانى عشرة بوصة . وقد ولد الطفل أبيض اللون والحمد لله . كما قالت امه : له بشرة متوردة وشعر فاتح اللون ، وعينان زرقاوان ، ولم يبق من آثار أصله الأسود غير غلظة الشفتين فسموا هذا الطفل اسكندر .

وقد شب الطفل منذ طفولته الأولى قويا فى جسمه وعقله وروحه الثائرة ... ان الرجل الشرير (نابليون) قد لطخ أبى بالعــــار ، فسأكرس حياتى كلها لمحاربة الاشرار .

– ٢ –

وحاولت أمه أن تجعل منه عالما ، لـكنه ببغض التعلم، ثم تحاول أن تعلمه العزف على القيثارة ، لكنه يبغض الموسيقى . وأخيرا تحاول أن تحبب اليه العمل بالكنيسة ولـكنه يفر من بيته ويقيم بالغـــابات أياما عدة . فاستسلمت امه لليأس (انه لا يقدر الا على شيء واحد .. هو الكتابة بخط حسن ، لكن أى معتوه لا يقـــدر على ذلك ؟) .

ولكن اسكندر كان أبعد مايكون عن العته ، فله عينان يقظتان ، وعقل متفتح ، وقلب يسع العالم كله حبا . وهو على كراهته قراءة الكتب كان يتعلم فى سرعة مطـــالعة الحوادث الجارية فى صور بديعة شتى ، وكانت أعظم الاحداث تجرى فى هذه الأيام الثـــائرة ، ففى يونية عام ١٨١٥ رأى اسكندر عربة تقتحم الشارع الرئيسى فى « فيير كتريه » ولمح من وراء الســـتار هيكلا لرجل .. حازم .. مستقيم ذى عزم وارادة ، هو نابليون يسير عجلا الى واترلو .. وما هى الا أيام قليلة ، حتى رأى نفس العربة تقتحم الشارع فى الاتجاه المضـــــاد فرأى وراء الستار ، خيال الهيكل نفسه كسيرا غائصا فى وسائده ، محطما « هو نابليون قد فر من واترلو » .

وبعد هزيمة نابليون حاولت أم اسكندر أن تستعيد

ثروتها ومكانها ، فعرضت علي أبنها أن يختار بين أن يدعى بذلك الاسم الأرستقراطى القديم (دى لابايترى . أو أن يستبقي ذلك الاسم المغمور المتواضع (ديماس) .

فأجاب الشاب الثائر (سأظل اسكندر ديماس) .

لكن ماذا عسى اسكندر ديماس ، حفيد الرقيق الأسود، أن يفعل لكسب عيشه . ان فى جودة خطه لجوابا على هذا السؤال ، فاشتغل نساخا فى مكتب الأستاذ (منسن) وهو مسجل صكوك حر المبادىء وصديق لأسرة ديماس .

وكان شاب السادسة عشرة ذو الساقين الطويلتين ، يقرأ في هذا المكتب أكثر مما يكتب ، وكان هذا يحفظ عليه الأستاذ ، فقد أتم قراءة فولتير وكثيرين غيره من الأدباء الذين أذكوا لهيب الثورة ، لكنه كان فى تلك الآونة بالذات ، يشغله لهب من نوع آخر ، فقد تكشفت له فجأة جاذبية قوامه الطويل الرشيق ، وابتسامته الخلابة البيضاء ، فشرع يغوى (اديل دلفن) وهى شابة من فتيات الطريق ، فلما نجحت مغامرته مع الشابة فى يسر فائق ، أخذ يقوى كفاءته تلك فى كد ومثابرة ، حتى غدا دون جوان (فيير كتريه) .

ثم يستهويه مطمح جديد ، فما دام القدر رشحه للمجد العالمى . فلماذا يضيع مواهبه فى مدينة اقليمية صغيرة ؟ لماذا لا يذهب الى باريس ؟ .

ولكن كيف ذلك ؟ ان الرحلة الى باريس لترف لا يسمح به فقر أمه ، وضحالة رزقه ، لكن ارادة اسكندر كانت لا تعرف اليأس فقد حذق فى ساعات فراغه لعب البليارد وتحدى الجميع ذات مساء فى الحانة أن ينازلوه .. وعاد الى منزله وقد احتوت جيوبه ما يلزم الرحلة من نفقة .

فاذا بلغ باريس ولى وجهه شطر المسرح الفرنسى .. وحجرة استقبال ممثل المأساة الكبير (تالما) انه لا سبيل الى ايقاف ذلك البصيص النورانى الذى تراءى فى صورة الانسان . فأعجب الممثل العجوز بروح الشاب المغامر : ما صناعتك أيها الصديق ؟ .

نساخ عند مسجل الصكوك يا سيدى لكني أود ان اصير أديبا .

ولم لا تكون ؟ ان كورنى أيضا قد بدأ حياته نساخا لمسجل صكوك .

شكرا يا سيدي .. هلا باركتنى لأصيب التوفيق .

« بكل سرور » .

ويضحك الممثل ويقول وقد وضع يده على جبين اسكندر : هأنذا أكرسك للشعر باسم شكسبير ، وكورنى وشيلر .

قال الممثل هذه الكلمات فى روح أقرب الى المزاح منها الى الجد .

لكن المسألة عند دوماس ليست مسألة مزاح انه شاعر يباركه شكسبير وكورني وشيلر ؟ سأحقق هذه النبوءة ! سأحققها لتالما ولباقى الدنيا كلها .. فهيا .

وذهب الى منزله وجلس يحيل قصة سكوتس(ايفانهو) الى تمثيلية .

— ٢ —

لم يستطع أن يجد منتجا لقصة (ايفانهو) ولا لتمثيليته التالية ولا للتى تلتها . لكنه ظل يأمل.ويلهو بالنساء ويولد

له أبناء غير شرعيين ويكتب التمثيليات والقصص ويحاول في الحاح دائب ليفرض عبقريته على عالم عنيد . وكلما رفض منتج أو ناشر ان يقابله كان يكتفي بالابتسام للسكرتيرة قائلا «شكرا ياآنستي لست ممن تخورعزائمهم بسهولة سأمر ثانية » .

واخيرا سنحت له الفرصة بفضل اصراره وتفاؤله .

فان احدى تمثيلياته وعنوانها (كرستيانا ملكة السويد) قد قبلت للتمثيل في المسرح الفرنسي واختير الممثلون ، وبدأت التجارب وتقرر النجاح للمؤلف الشاب . لكنه القى بالفرصة جانبا وقد فعل ذلك بدافع من كرم النفس . فان مؤلفا مسرحيا آخر . . رجل عجوز قضى طول حياته يحاول الوصول الى المسرح على غير طائل قد اتم الآن فقط مثلما فعل ديماس تمثيلية عن ملكة السويد . فقال ديماس « فلنسمح للزميل العجوز بأن يجول جولته على المسرح قبل أن يودع الأرض » وسحب روايته في ايثار وشهامة .

ثم شرع يكتب تمثيلية جديدة عنوانها (هنرى الثالث) وظفر لها بمنتج وجعل ينتظر على أحر من الجمر حفلة الافتتاح . وكانت ليلة ١١ فبراير عام ١٨٢٨ فأخذ ديماس في ارتداء ملبسه استعدادا للمسرح . لقد اعد كل ملابسه مقدما (السرعة . . السرعة حذار من التأخر فلبس حذاءه وسرواله وقميصه . . وفجأة وجد أنه قد نسى شراء زيق فاستل مقصا وقطع به زيقا من الورق المقوى لف به عنقه . ثم هرع الفارس المورق) الى المسرح ونظر من خلال ثقب في الستار « أن القاعة مزدحمة حتى الأبواب » .

كانت الحفلة نصرا باهرا . واستحالت ضجة الاستحسان منذ اسدال الستار الى هذيان محموم حين ظهر المؤلف

ورأسه مرفوع عاليا ، حتى أن ناصيته غير المشوطة كادت تشتعل من أنوار المسرح . ذلك هو الرقيق ذو الزيق الورقى قد أصبح الملك الجديد للمسرح الباريسى .

واقبل ديماس على مملكته كأنما قد ولد للملك . فهو يوزع الابتسامات ويتقبل التكريم ، ويستاف النجاح الحلو كما يستاف نسيم الفجر . ويكتب تمثيلبات جديدة ويحظى بانتصارات جديدة ويغزو معشوقات جديدة .

ثم يقوم بمغامرة جديدة . فقد صار الكاتب محاربا . ذلك بأن شارل العاشر قد أصدر مرسوما بخنق حرية الصحف فثار المثقفون الباريسيون على المرسوم وانضم ديماس الى الثورة .

وفى هذه الثورة كان نصيب ديماس من الصياح أكثر من نصيبه من الكفاح . وكان دوره فى الحرب أشبه بدور الذبابة على عجلة المركبة . ولكنه يحظى بأن يفرش وجهه فى العرق البارد . ويحظى بالنصيب الأوفى من التصفيق . قال له لافييت صائحا وهو يعانقه (مستر ديماس لقد الفت أعظم رواياتك) .

فشكر ديماس لافييت على تحيته . وعرض عليه أن ينظم الفلاحين الفرنسيين . وقبل لافييت ماعرضه ديماس ، فازدان ديماس فى ملابس صارخة الألوان (فهو كالأفريقيين يزدهيه البهرج) وحذاء لامع وسروال فى اللون الأزرق الملكى وسترة قرمزية ذات أكتاف فضبة وخوذة لهـا ريش أحمر متموج وشريط مثلث الألوان . ثم شرع يعمل مع مساعده وكان هذا المساعد مزورا قد أنقذه من المشنقة . وخطب جماهير الفلاحين وأمتعهم وفشل فشلا أليما فى محاولة تنظيمهم .

لقد فشلت الثورة تماما ولم ينجح الثوار الا فى اسقاط ملك سيىء وتتويج ملك أسوأ .

فغادر ديماس فشله السياسى الى نجاحه الأدبى ، فألف مسرحية .. انطونى وهرعت باريس كلها تتماجن وتستمتع بقوتها التمثيلية والاباحية « يا الهى ما أوقحه من مؤلف ! وما امتعه من شاب ! » وقد مزقت السيدات أطراف سترته فى حماسة الليلة الأولى .

ويظل الزنجى الوقح الممتع بصدريته الزاهية ، وأسنانه اللوامع ، يدور على متن دوامة القـدر . فيولد له طفل وتهجره عشيقة ويصاب بالهيضة ويؤلف مسرحية أخرى ناجحة .. ثم يشـــارك فى ثورة فجة أخرى ويفر الى سويسرا خشية أن يقبض عليه لأنه « جمهورى خطر » ثم يطمح الى العمل فى الكنيسة على حين بغتة ولم لا ؟ .. لقد خلقت المسرح الجديد فلأخلق فى الدين مذهبـــا جديدا .

لكنه ترك الفكرة فجأة ، كما قد أخذها فجأة . فهو ثائر لا ينسجم طبعه مع هدوء الكنيسة . وان متع الأرض لأشهى من أن تستبدل بها وعود السماء . « وانى لأوثر ان أظل وثنيا وأدفع الثمن فى الآخرة » وظل الى آخر أيامه وثنيا يسلى الرجال ، ويغـــوى زوجاتهم ، وينتج مسرحياته ، ويرفل فى حلل المجد ، ويواجه ما يلقى من نجاح وفشل بتهامل طيب كريم . يلقى المديح بهزة كتف ، والاهانات بابتسامه .

ولكن ان صدر القدح عن حقد بالغ فهو أحيانا يمزج بابتسامته الحلوة شيئا من الملح.كان شاب من الأشراف يباهى بأصله ، ثم التفت الى ديماس وهو يقول (حدثنى الآن عن أصلك) .

فأجابه ديماس (ولد أبى فى الهند الغربية . وكان جدى زنجيا . وكان جدى الأعلى قردا .. يبدو أن اسرتى قد ابتدأت من حيث انتهت أسرتكم) . وقال له يوما بلزاك منافسه المر فى صالون أدبى محاولا أن يخضد شوكة الروائى الشـــاب (حينما تستنزف مواهبى سأكتب التمثيليـــات ففـــاجأه ديمـــاس بقـــوله : اذن فاكتب التمثيليات حالا) .

— ٤ —

فى السادس من فبراير عام ١٨٣٢ ظهرت فتاة موهوبة من المونتبارناس تدعى (ايدا فرير) فى أخرى مسرحيات ديماس (تريزا) وبعـــد التصفيق الذى أعقب اسدال الستار الأخير ألقت الممثلة بنفسها بين ذراعيه (مسيو ديماس لقد خلقت شهرتى . كيف لى أن أرد جميلك يوما ما ؟) فقال لها (ليس أسهل من ذلك) وأرسل عليها ابتسامته التى لا تقاوم . وظلت سنوات عدة ترد عليه جميله . ثم تزوجا ، الأمر الذى دهش له الجميع فأسلم ديماس نفسه لحياة منزلية .. ورضى الوميض بالاغلال . لكن الأغلال كانت تتدلى على ظهـــــره ، ولا تلجم قوته المتهورة . فطالما كان يترك صاحبته ليغامر خارج المنزل .. وكان يسمح لزوجته فى سماحة أن تبحث هى عن مغامراتها الشخصية فى المنزل اذ كان شعاره (عش .. ودع غيرك يعش) .

وانه لدائم البحث عن مثيرات جديدة ، وغرام جديد ، وتهليل جديد . فان أمجاده المسرحية قد بدأت تخبو . ونيران الثورة قد خمدت فى العالم كله . فلابد لطاقته القلقة من سبيل جديدة . لكن أين ؟ وكيف ؟ .

« آه .. لقد وجدت السبل الجديدة فى القصص التاريخى» لسوف يعيد الماضى الذى مات الى حياة صاخبة. لقد مات والترسكوت ملك الخيال فليحى الملك الجديد اسكندر ديماس ، وشرع يعمل كالمحموم فى روايته التاريخية الأولى الفرسان الثلاثة ، وكان يعينه فى البحث التاريخى Auguste Maquet وهو عالم له بصر بالحبكة القصصية . أما ديماس فكان لا يعنى بالحقائق الميتة ولكنه شديد العناية بحقائق التاريخ الحية فهو يقول (لا بأس من انتهاك حرمة التاريخ بشرط أن تنجب منه طفلا) .

وجعل يعمل فى قصته لا يدركه التعب .. من السابعة صباحا حتى السابعة مساء . مرتديا قميصا بلا اكمام مفتوح العنق ، والى جانبه وجبة غذاء لم يمسسها فى الأغلب . واذا تصادف أن مر به زائر فى ساعات العمل ، لوح له بيده اليسرى محييا بينما اليد الأخرى ماضية فى الكتابة . كان يعمل دائما فى احتشاد هائل . لكنه احتشاد اللاعب ، فهو يعيش مع أشخاصه ويحدثهم ويمازحهم . وقد جاء رجل من الانجليز لزيارته فسمع ضحكة تنفجر من مكتبه فقال للخادم :

سأنتظر حتى يكون سيدك بمفرده .

فأجاب الخادم ان سيدى بمفرده .. وانما يضحك من فكاهة حلوة سمعها من شخص فى روايته . كان يعيش مع أشخاصه نهارا ومع اخوانه ليلا ، فاذا سأله الناس كيف استطاع أن يشعر بالمرح والنشاط بعد كده اليومى ، أجاب بأن محصوله اليومى لم يكن على الاطلاق (انى لا أؤلف رواياتى ، بل أنها تؤلف نفسها فى داخلى) لكن كيف ذلك ؟ (لست أدرى .. سل شجرة البرقوق كيف حملت اليك ثمارها) لقد أوتى موهبة الخالق ، وموهبة الصداقة

الغامضة والأشد ندرة . فهو يحتفظ دائما ببيته مفتوحا وقلبه مفتوحا .

وكانت ساعة الغداء بمنزل ديماس تمتد من منتصف الساعة الثانية عشرة الى منتصف الساعة الخامسة . وكان يقبل ضيوف جدد دائما .. وكان على الخدم أن يهرعوا الى القصاب يشترون شرائح لحم جديدة . واذا استطاع ديماس أن يستريح من عمله فهو يختلط بضيوفه بحرية . فكان يأتى من غير دعوة كثير منهم على الرحب والسعة ، قال له صديق (أتتفضل بتعريفي بالسيد الذى هناك ؟) فأجابه (كلا لا أستطيع فاني لا أعرفه) كان كرمه اشبه بهوة ليست بذات قرار . وهو أبدا يلقى فيها بكل ما يكسب . فهو دائما مدين . حتى أصبح المحضر أشد ضيوفه مواظبة على زيارته وحدث مرة أن طلب اليه صديق المعاونة على دفن رجل مسكين مات لتوه . فأخرج ديماس من جيبه خمسة عشر فرنكا وسأل : (ومن ذلك الرجل المسكين الذى مات ؟) .

محضر .

فقال ديماس صائحا اذن فأنت سوف تدفن محضرا .. اليك خمسة عشر فرنكا أخرى .. ادفن اثنين منهما .

— ٥ —

وبينما جيوب ديماس يفيض منها المال ظلت شهرته تسمو من قمة الى قمة . فهو يتنقل من تحويل التاريخ الى قصص الى تحويل القصص الى تاريخ ، فان قصة (مونت كريستو) والتى شارك فى كتابتها Maquet هى من صنع الخيال الصرف لكن أشخاصه كذلك بهم من

الحيوية ماجعل الهـداة فى مرسيليـا حتى يومنا هـذا يشيرون للزائر الى بيوت Mosel Mercedes وصوامع Edmond Dantes ورئيس الدير Foria فى قلعة (IF)

لقد خلق ديماس من السحب والأبخرة مساكن قوية، ورجالا أحياء . ولم يكن ديماس يهدف الى الخلق ، بل كان يهدف الى الامتـاع . فمهمة المؤلف فيما قال ان يكتب فى روح مستمتعة حتى يحيا أشخاصه مسرورين. ما قيمة اى فن ما لم يبعث الناس على المرح ؟ لم يدع الشعر وانما كان يهدف الى البراعة فى القصة . فاذا قال له أحد ظرفاء النقد انك تكتب عن أحداث لا علم لك بها البتة ـ رد عليـه ديماس بقوله : لو انى ادرس الأحداث فانى لى الوقت اللازم لكتابتها ؟ فكان (ماكيه) ومساعدوه الآخرون (وكان أعداؤه يتهمونه بادارة مصنع للقصص يعمل بانتظام) يمدونه بالحقائق الجافة. وكان يأخذ هو هذه الحقائق ويعمل فيها نار الخيال وروح الحياة .

وهكذا جلس فى مصنعه حتي أقبل ليل حياته الأدبية وكان أشبه بالراوية العربى ، الذى يطيل سهر قبيلته تحت سماء البادية المزدانة بالنجوم . فاذا قاربت نهاية السهرة كانت كأس نجاحه قد مزجت بمرارة الحسد ، ولكن هذه المرارة نفسها لم تحل من زهو . فهو انما يحسد ابنه .. ذلك بأن اسكندر ديماس (الابن) قدكتب قصة غادة الكاميليا التى فاقت فى شهرتها كل ما كتب أبوه فجعل كل من الأب والابن يحاول التفوق على صاحبه بأن يقدح فى صاحبه ويحب صاحبه ويوشك أن يعبده ، فيقول اسكندر ديماس الأب « لقـد انجبت ولدا .. فاسـتحال الى ثعبان » فيرد عليه ديماس الابن عابثا

« وان اميت ابا فاستحال الى طفل » .

ظل حتى آخر حياته مستهترا ضاحكا مغامرا . ورغم تقدم سنه ، وثقل جسمه لكثرة ما أصــاب من مائدة النجاح . فقد ظل عقـله هائجا قلقا على عهده فحيثما تنشب ثورة يقذف بنفسه وسط دوامتها ، فقد استعد عام ١٨٤٨ الآن يقود الحرس الوطنى الى باريس ، ولكن الحرس الوطنى يرفض أن يتبعه وانضم عام ١٨٥٩ الى حركة غاريبلدى ولم يكتف بالمشاركة بثروته التى بلغت ٥٠٠,٠٠٠ فرنكا ، بل عرض ان يهب حياته نفسها دفاعا عن الحرية الايطالية ، وقبل بعد أربع سنوات أن يتولى قيادة الثورة اليونانية ضد الأتراك . ولكن يتبين له أن منظم الثورة (الأمير Skandenberg) رجل محتال . وكان نشاطه القلق دائم السعى الى التعبير عن نفســه تعبيرا عمليا فلم يجد الى الراحة سبيلا .

ويعود الى باريس وهو فى عامه الثالث والستين ، بعد أن زار ايطاليا للمساهمة فى الثورة ، فيقابله ابنه فى المحطة فى الساعة العاشرة ليلا (لابد انك متعب جدا بعد مابذلت من جهد يا أبى ، فدعنى آخذك الى المنزل !) فصاح ديماس الأب كلا ، اريد لارى جوتيير قبل أنآوى الى فراشى . وأخذ ابنه غصبا الى منزل صاحبه القديم . وكان المنزل موصدا حين بلغاه فأثار ديماس ضـــجة أيقظت جوتيير من نومه . ما الخبر ؟

ديماس الأب وديماس الابن .

لـكننا جميعا فى الفراش .

ماذا ؟ فى الفراش فى تلك الساعة المبكرة ، اقبلوا أيها الكسالى تيقظوا جميعا وكانت الساعة قد بلغت الرابعة

صباحا حين عاد الأب والابن من منزل جوتيير، ثم قال ديماس الأب (الآن يا اسكندر أريدك أن تأتى لى بمصباح) (لماذا ؟) (لدى عمل أريد انجازه) ثم ترك الابن أباه أمام مكتبه وذهب لينام . فاذا صحا بعد الفجر بزمن طويل وجد على المكتب ثلاثة مقالات تامة معدة لثلاث مجلات ووجد ديماس الأب يحلق ذقنه ويغنى أمام المرآة .(كيف أنت يا أباه ؟) (غض منتعش يابنى ، كأنى اقحوانة ندية) ثم يتبدى فى عينيه بريق وهو يقول « أترانا نحن الشباب يدركنا التعب فى سهولة كما يدرككم معشر الشيوخ » .

- ٦ -

واخيرا يلقى شباب الثامنة والستين بقلمه جانبا ليستريح لا تعبا من مغامراته القديمة بل شغفا بأن يجرب شيئا جديدا ، وكان قدفرغ لتوه من غرامه الأخير مع الممثلة الأمريكية (ادامنكن) وكان هذا الغرام عاصفة قصيرة سريعة انتهت بمأساة حين قتلت الممثلة فى سقوطها عن ظهر حصانها . فذهب ديماس الى منزل ابنه (بنى لقد أتيت اليك لأموت) ولم ينبس بعدها ببنت شفة . فاذا هز صحابه رءوسهم محزونين وهم يقولون ان ديماس قد اضمحل وانهار رد عليهم ابنه بقوله (ان عقلا كعقل أبى لايمكن أن يضمحل أو ينهار . ولئن رفض أن يحدثنا فى لغة اليوم فذلك لأنه أخذ يتفهم لغة الخلود)

فيكتور ماري هيجو

(١٨٠٢ - ١٨٨٥)

- ١ -

كان فيكتور مارى هيجو عام ١٨٦٥ منفيا على جزيرة (جرنسى) فقد نفاه نابليون الأصغر من باريس لاسرافه فى حب الانسانية ، فاذا كان التاسع والعشرون من ابريل من تلك السنة جاءه خطاب .. اذ كان الرجل ذائع الشهرة جدا بعنوان فيكتور هيجو ، بالمحيط . وبعث فى نفس اليوم مع وزير أمريكا فى بلجيكا بخطاب موجه الى «مواطنى من أبناء العالم» وقد أعرب فى هذا الخطاب عن حزنه على مقتل لنكولن (لقد ارتج العالم كله لذلك الهول الذى أصاب واشنطن) ثم يختتم المنفى خطابه بتوقيعه (مواطن مخلص فى جمهورية البشر) .

وان من النـــاس من يعتبر فيكتور هيجو وابراهام لنكولن بمكان العقل والقلب من القرن التاسع عشر .

- ٢ -

ومن عجب ان الطفل الذى شاء له القدر ان يكون اكثر الجمهوريين الاوربيين تحمسا قد نشأ على تقديس الملكية . فقد كان أبو فيكتور هيجو قائدا فى جيش نابليون وحين بلغ فيكتور عامه الحادى عشر رأى نابليون خلال شوارع

باريس راكبا . ماراعتني اذ ظهر الامبراطور واشتملت على تلك الرهبة المقدسة ضجة الجمهور الصاخب الذى يسير وراءه يردد الأناشيد الجماعية ، وانما راعتني رؤية الامبراطور يتحرك صامتا شجاعا كأنه اله من البرونز. وظل فيكتور هيجو حتى بعد اكتمال نضجه يرى فى اباطرة فرنسا انهم قد شاركوا البرونزصلابته.

وقد جاءه حب الامبراطور من طريق أمه أكثر مما جاءه من طريق أبيه . اذ كانت السيدة هيجو تنتعل دائما حذاء أخضر. لأن الأخضر يرمز الى ملوك فرنسا. وكان الأخضر أيضا لون عيني مدام هيجو. وكانت هذه السيدة غيورا على زوجها دائما ، وكان زوجها غيورا عليها دائما ، وكان لهذا وذاك سبب فحياتهما الزوجية كانت سلسلة تتعاقب فيها المصالحات والانفصالات .. وجود نساء غريبات فى بيت الجنرال هيجو ورجال غرباء فى منزل مدام هيجو. أما فيكتور فكان يعبد أباه وأمه جميعا .. رغم ان حياة أبويه المضطربة قد جرت على طفولته تجوالا لايستقر من باريس الى بوردو ، ومن بوردو الى سجوفيا ، ومن سجوفيا الى مدريد ، ثم عود من مدريد الى باريس .

وكان من أثر هذا التجوال ان جاءت تربية فيكتور الصغير تربية مهوشة .. فقد أصاب معلومات من هنا ومن هناك يعوض تشعبها مايشوبها من سطحية .

قال صديق لأمه (هذا الطفل يعرف القليل عن كل شيء) فأجابت أمه (نعم يعرف القليل القيم عن كل شيء).

وهكذا جعل يتنقل من مدرسة الى مدرسة . يستاف عجلا رحيق هذه الزهرة ورحيق تلك .. حتى وصل فى

عامه الثالث عشر الى كشف عظيم هو شـعر فرجيل (ديكوت) فترجم الأنشودة الاولى لفرجيل وكوفىء على ذلك بضرب صبه عليه مدرس له ، فقـد فرغ ديكوت لتوه من ترجمة نفس الأنشودة التي ترجمها هيجو فكيف يجرؤ هذا المبتدىء الصغير على منافسـته . فجفف فيكتور عينيه .. ومضى لشأنه . فنظم أغنية فى مسابقة مدرسية .. لم يكن ديكوت من المحكمين فيها فنـال الجائزة الأولى وكتب ملحمة وتمثيلية وقصـة فشرف بتلقيبه الطفل الأسمى .

وبرهن الطفل الأسمى على انه قد نضج قبل أوانه ، لا فى الأدب وحده ، بل فى الحب أيضا ، فهو فى سن السابعة عشرة يخطب فتاة فى السادسـة عشرة هى : (اديل فوشير) « أتذكرين يا اديل ؟ لقد كنا فى السادس والعشرين من ابريل ١٨١٩ ، حين جلست عند قدميك ذات مساء . فطلبت مني ان افضى اليك بسرى الأعظم . فاعترفت مرتعشا بأنى أحبـك ، فلما سمعت جوابك يا اديل العزيزة وجدت فى نفسى أسدا جسورا » .

وتزوجا بعد عامين فما أبهاهما من زوجين . هـذه الفتاة ذات العينين السوداوين الجريئتين والبسـمة الشيقة ، وهذا الفتى بفم الشاعر وجبين الجندى . وما امتعها من حفلة زفاف ! كانت مناسبة فاضت بالعسل، واللبن ، والزهر، والفاكهة ، والضحك ، والحب !..

غير ان الحفلة قد ترددت فيها نغمة ناشز واحدة ، فقد اقتحم الحفل رجل يحمل فأسا . وسار صـوب العريس لايلوى على شىء ، واستطاعوا ان يحولوا بينه وبين مايريد . ياله من مجنون ، انه اوجين أخو فيكتور الأكبر أصابه من الغيرة مس .. فقد كان هو أيضا يبغى

الزواج من (اديل) .

وكان المشهد العاصف ليلة الزفاف مقدمة حياة عاصفة لفيكتور، فصارت الريح تهب عليه تارة بالسرور وتارة بالأسى فى عدل واستواء . فهو يكتب ديوان شعر ناجح وتمثيلية ناجحة ، ويحظى باعجاب الجمهور وثناء النقاد، ويمنح شريط الليجيون دونير ، ويولد له طفل لايلبث ان يموت وتموت أمه .

وتنكشف له خيانة من صديق كان أعز عليه من أصدقائه جميعا . ذلك هو الناقد سانت بيف الذى انقلب عليه .. اذ حاول مع زوجته امرا لم تقره عليه . كانت هذه الفكرة المرة تملأ شغاف قلبه حين حضر افتتاح مسرحيته (ارنانى) وكان عرضها حدثا عظيما . فقد كتب لتمثيلية « هيجو » هذه التى تحررت من التقاليد ، ان تكون فاتحة الجهاد بين الابتداعيين والأتباعيين ، بين نار الجديد ورماد القديم فقد تحدى هيجو خصمه الى منازلته اذ يقول « فى هذه المسرحية تحطيم أى تحطيم لكل النظريات وفنون العروض والمذاهب انى أمسح عن وجه الجمال ذلك الطلاء العتيق الذى كان يحجبه ، فلن تكون قواعد ولا نماذج بعد الآن»

ومثلت المسرحية فى ضجة يختلط فيها الاستهزاء والاستحسان . فاذا اسدل ستار الختام ، تغلب هتاف الاستحسان . وتطلع النظارة كلهم فى حماسة فائقة الى ملك القصص المتوج الجديد . ولكن هيجو لايشعر بعاصفة الاعجاب فعيناه معقودتان بالشرفة التى يجلس فيها سانت بيف ناظرا الى (اديل) لا يتحول عنها .

وألحف هيجو على سانت بيف فى الرجاء ، فوعد سانت بيف ألا يرى (اديل) بعدها قط ، الا انه لايفى بوعده . بل يصر على مقابلتها والكتابة اليها .. مخالسه كما حسب ، ولكن الأمر لم يفت على هيجو ، وحاول هيجو أن يندمج فى عمله لينسى أساه . فكتب قصه (نوتردام دى باريس) وقد بدأها فى ٤ سبتمبرعام ١٨٣٠ واشتغل فيها متحمسا كالمحموم خلال الخريف وأوائل الشتاء ، وأتمها فى الخامس عشر من يناير. انها قصة معبد مقدس ، هو بناء حجرى له روح حية وبقول المؤرخ الفرنسي مشليت « لقد أقام هيجو الى جانب الكاتدرائية القديمة ، كنيسة نوتردام ، كاتدرائية للشعر تعدلها رسوخ قدم وشموخ أبراج » .

ثم يختلف عليه تصفيق الاعجاب وعذاب القلب والعمل . ثم يقع فى غرام جديد .. مع (الطير النارى) جوليت الممثلة الحسناء التى عبث بجسمها كثير من الرجال ، ولكنها تكرس قلبها الآن لرجل واحد . وتظل خمسين عاما هائمة ولهى بفيكتور هيجو .

وظل فيكتور هيجو هائما ولهان بجوليت لا عن زهادة فى حب (اديل) . فان هذا الحب قد بقى ولم يزل.. ولكنه صار أشبه بحب الطفل لأمه منه بحب الزوج زوجته . ولعل (اديل) قنعت بهذا اللون الهادىء من الحب . فقد كان شعورها نحو هيجو .. ونحو سانت بيف ، شعورا افلاطونيا دائما لا تملك فيه ولا حيازة . فالحب عندها شمس مائلة فهى تستمتع بدفئها المتحرر قانعة بالبقاء بعيدا عن وهجها العمودى .

وأما غرام هيجو وجوليت ، وكانت لا تخلو هى أيضا من لمحة الشعر ، فكان أشبه بلهب قاهر غلاب ، فهما لم يعرفا قط ذلك الشعور بالشبع والملالة من الحب . وظل طوال نصف قرن ، بعد ليلتهما الأولى يستجيب لخمر قبلاتها (انى اقبل جسمك وروحك ، انت الجمال وانت النور ، وانى لاعبدك) .

وكانت جوليت معبودة هيجو تلك ، طفلة لا اسم لها من أطفال الشعب . كانت لقيطة وهى عند هيجو ترمز الى كل لقطاء العالم . وكان من أثر حبها اياه انه تحول تدريجا من بوربونى الى برجوازى ، ومن ملـــكى الى اشتراكى . ويعلن انه منذ الآن سيصدر فى حياته عن اخلاص مشفق للمنبوذين، فلسوف يستخدم كل ما أوتى من قوة — كما قال — فى الدفاع عن المستضعفين . وظل هذا مبدأه الذى يترسمه حتى آخر أيامه . فهو ينضم الى صفوف الشعب فى ثورتى ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ وهو بهذا لايخاطر بسمعته وحدها بل وبحياته نفسها . فهو فى ثورة ١٨٤٨ يحارب فوق المتاريس (لقد قتلنى الاجهاد فقد قضيت ثلاثة أيام ولياليها يقظان فى وسط المعمعة وليس ثمة فراش ، ولاطعام ولاشراب غير النذراليسير، وليس من طريق للراحة غير الجلوس على الرصيف لحظة بين الحين والحين) .

وبينا هو خارج منزله قائم عند المتاريس ، اذ هاجم منزله من يدافع عنهم من الناس ، وجعلوا يتنقلون من حجرة الى حجرة ، يحطمون ويمزقون ويكسرون ، حتى بلغوا حجرة مكتب فيكتور هيجو ، فرأوا شيئا على مكتب عال قرب الشباك، اذكان هيجو يكتب دائما وهو واقف، رأى المهيجون عددا من الأوراق مبعثرة .. وكان زعيم

المهيجين مدرسا سابقا يدعى (جوبير) فالقى نظـــره على الأوراق انها بداية قصة . ثم نظر الى صحيفة العنوان. ليس اسمها سيئا . فسأل احد رفاقه ما اسم القصة ؟ (البؤساء) .

- ٤ -

بدأ هيجو كتابة (البؤســاء) فى باريس ، واتمها فى (جرنسى) وهى الجزيرة التى نفى اليها لمناهضته طغيان نابليون الثالث . وظلت عاصفة اقداره تلاحقه ، فجعلت الحياةوالموت يتبادلانه ضما ولكما ، فهويحتار للأكاديمية، وتغرق ابنته (ليوبولدين) عند مصب نهرالسين. ويعترف به شاعر فرنسا ، وتموت له ابنة اخرى قبل الأوان ، ويحج الى مزار جزيرة القديس ، ثم يصيبه غرام تعس يتبعه جنون ابنته الثالثة . هكذا جرت الأحداث التي حفت بتأليف (البؤساء) .

فاذا كتب ملحمة الأسى البشرى هذه ، ربت الله على كتفه واحال بصره من الأرض الى السماء (لقد دعتني الأرض شاعرا .. فجاوبتها السماء بل نبيا) . فهو من خلال شقائه قد صار نبى الألم (لقد واجهت رهبة الموت .. فوجدت فيما يليها زهرة الحياة .. زهرة الحياة امل من لا أمل له ، انجيل المتواضعين المستضعفين . عطف الله وحدبه على كل مخلوق معذب) .

هذا هو موضوع (البؤساء) احالة العذاب رحمة ، واحالة الرحمة حبا . وكان كتابا ثائرا صاخبا عطوفا . استشرى فى العالم نارا جائحة ، فقد حاصر الباريسيون مكتبة (بانيير) فى السادسة صباحا من يوم نشره ، وما

هى الا بضع ساعات حتى كانوا قد مضوا بخمسين الفا من نسخ الكتاب، وهتف بفيكتور هيجو الذى أسر وحده على صخرة (جرنسى) المواطن الاول للعالم ، وتلقى المواطن الأول أمجاده فى اعتداد متواضع .

واخذت سنه تصفركلما مرت السنون (فتحت‌شعرى الأبيض يعيش حب ربيع الحياة فالنسور لايعرف الشيخوخة) . لقدصار من‌الجبابرة فى الاحتمال‌الجسمى والعقلى فهو يستيقظ عند الفجر ويندفع فى البحر. ثم هاهوذا واقف قبل شروق‌الشمس أمام مكتبه. ويصيب قدرا من الراحة بعد الظهر مع أقلام الرسم ، فهو يحب النقش قدر ما يحب الأدب . ثم يسير فى نزهة طويلةعلى شاطىء البحر ليستمتع بالشمس ورشاش‌الماء الذى تذروه الرياح .

وهو لايستخدم قط عصا يستعين بها فى مسيره فوق الصخر ، ولا مظلة تظله من المطر . فهو لايخشى الحر أو البرد (انى خالد لا أموت ولايستطيع شىء ايذائى..) وكان أكالا أكيلا. فهو يجهز على عدة صحاف من‌اللحم فى جلسة واحدة . وقد مرت به أيام كان لايرد جوعه دجاجتان .

نهم فى اكله ، نهم فى تفكيره ، نهم فى قبوله أحزان الحياة ومسراتها . هل الحزن الا مقدمة السرور ولو اننا دربنا آذاننا على‌استماع سيمفونية الحياة لتبين لنا انها تنتهى بنغم جميل .

واجه فى‌هذا الاطمئنان المطلق موت اثنين من بنيه وموت زوجته (اديل) وفى هذا الاطمئنان واجه الغزو الألمانى لفرنسا عام ۱۸۷۰ وكان حينذاك قد عاد من‌منفاه بجرنسى (كل امرىء الى الجبهة أيها المواطنون. لتنهض

المدن عن بكرة ابيها . ولتشعل النــار فى كل الحقول . المدن المدن المدن . انشئوا غابات من الحراب . ضاعفوا من رماحكم وأعدوا مدافعكم . وانت أيتها القرية ارفعى مشعلك على كل رجل غنيا كان او فقيرا عاملا كان أو فلاحا أو كاتبا أن يحضر معه أو يلتقط من الأرض كل ما يشبه السلاح أو القذيفة . جروا الصخور وكوموا احجار الرصف . احيلوا الأخاديد الى خنادق . اقتلعوا الأحجار من أرضنا المقدسة اقذفوا الغزاة بعظام امنــا فرنسا) .

ثم ينبعث من عينه ضوء ينبىء بالمستقبل (لاتخشوا هزيمة اليوم بل كونوا قلبا واحدا ويدا واحدة تعمـل لهدف واحد هو النصر فى النهاية) .

وبهذا الايمان نفسه . الايمان بنبالة الأسى البشرى. وبتوجيه الكد البشرى الى هدف محدد كتب قصة من خير قصصه عنوانها (الـكادحون فى البحر) وهذا موجز لها غير واف :

تنشأ صداقة بين (ليتيرى) عم دروشت الساحرة وولى أمرها وبين المغامر (رانتين) ويرد رانتين على مودة ليتيرى بأن يسرق منه ٥٠,٠٠٠ فرنك ، وكان هذا المبلغ هو كل ما ادخره ليتيرى طيلة أربعين عاما وكان مخصصا ليكون صداق (دروشيت). وتصير دروشيت وقد صار يتعبدها فتى فى صمت . ذلك هو جيلىات وهو شــاب لاريب فىشجاعته ، وان حفت بميلاده الريب . وكان يتعبدها على البعد ، ولـــكنه يشعر انه أهون من أن يفاتحها بحبه .

وينقذجيليات قسيسامن الغرق ذات يوم، فيهبه القسيس جنيها ، فيرفض جيليــات ويقبل الانجيل حين يعرضه

عليه . فينشأ موقف طريف ، فتاة حسناء صداقها قد سرق ، شاب ذو مركز وضيع يحب الفتـــــاة حب المستيئس ، وشاب آخر أرفع مكانا وأرقى تعليما. هذا هو الثالوث الذى لا مفر منه ، لكن فلنمض فى سبيلنا لنرى كيف يمضى المؤلف فى تنمية موضوعه وكيف يحكم الوشائج بين مصائر هؤلاء الشبان الثلاثة ومصائر غيرهم من الناس .

وكان لليترى عم (دروشيت) زورق بخارى يدعى الدوراند يقوده الربان كليبان وكان ليترى قد فقد كل سفنه الأخرى وانحصرت كل آماله فى الدوراند وربانها. وكان الربان رجلا أمينا يستحق ثقة سيده فيه ، قابل فى احدى رحلاته المحتال رانتين الذى سرق مال ليترى والذى كان على وشك الفرار من البلاد بثروة تقـــدر بخمسة وسبعين الف فرنك ، فيضطره وقد شهر عليه الفدارة الى أن يسلمه المال ثم يقلع الى ليترى ليعيد المال اليه .

وهنا يزيد المؤلف فى تعقيد القصة ليطيل خيوطها فتتحطم البـــاخرة دوراند فيرسل كليبان ركابها الى الشاطىء فى القارب الطويل وينتظر الموت فى هدوء فوق السفينة الغارقة . لقد كادت تتحطم الآمال التى وضعها ليترى على مستقبل دروشيت فقد خسر الدوراند ولم يبق منها شىء عدا الآلات التى كان ليترى نفسه قـد رسم تصميمها . ولو أنه استطاع فقط أن يستعيد الآلات اذن لأمكنه بناء سفينة أخرى حولها وقد تعود الحياة ســــيرتها ، فهل من أحد يستطيع الى الآلات سبيلا ؟ .

لو استطاع ذلك أى رجل فله يد دروشيت. فينبرى

أحد الناس لهذا العمل الذى يكاد يستحيل نجاحه . ذلك الرجل هو (جيليات) . فيهرع الى حطام السفينة. وكان تحت هوة فى القناة . وكان بلوغه يستلزم النزول تسلقا على حبل معقد وكان عملا فوق طاقة البشر أداه فى جسارة بالغة . وجعل يكد يوما بعد يوم ويتحمل الجوع ، اذ قد أطاح البحر بجزء من قوته الذى أحضره معه . فهو يعيش على الأصداف والسلطعون (ضرب من النبات) حيثما استطاع استخراجها .

وذات مرة كان يخوض ماء ضحلا فى أحد الكهوف فهاجمته سمكة ضخمة . غير انه نجا بأعجوبة .

وهكذا يظل جيليـــــات كادحا كأنه رمز لكل أولئك الآدميين الكادحين الذين يجهدون ويشقون ويأملون أن يفضى بهم جهادهم الى مرفأ الأحلام .

ثم يشرع المؤلف يعدنا لقمة الحوادث . فيأخذ جيليات الى مسارب الكهف النائية فيعثر على هيــكل لعظـــام رجل . ويستطيع جيليات أن يتعرف على صاحب الهيكل بفضل منطقة تحمل اسمه . فهو هيكل ربان السفينة ، كليبان . وكان قد ربط فى المنطقة ربطا محكما صندوق حديدى به خمسة وسبعون الف فرنك فيأخذ جيليات المال ويعود كادحا . ستأخذ دروشيت صداقها ويأخذ ليترى آلاته ويستطيع جيليات آخر الأمر أن ينقذ الآلات ويستعد للمكافأة التى وعد ، وهى يد دروشيت .

يقترب فى المســـاء من المنزل الذى تقطنه الحسناء فيسمع بلبلا يغنى . وكانت أغنية تصدح فى قلبه كذلك. كانت دروشيت فى الحديقة لكنها لم تكن وحدها فان معها القسيس الشاب الذى انقذ جيليات حياته وكانت

دروشيت والقسيس يتعانقان . فينكص جيليات على عقبيه ويتركهما لهواهما. وتتزوج دروشيت من حبيبها ويبحران الى انجلترا فيقف جيليات برقب السفينة على صخرة تقع على حافة الماء فيرتفع المد ويصل الى ركبتيه ثم كتفيه ثم فوق راسه . وهكذا تنتهي حياة أحد الكادحين فى البحر .

لكنه قد نال مكافأته . فهو الا يكن قد كسب يد دروشيت فقد كسب ما هو أهم من هذا بكثير ، وهو سعادة دروشيت .

— ٥ —

نحن فى العيد الثمانين لميلاد هيجو . فنسمع احد أصدقائه ينادي « زهور لابد من الزهور » ونرى الطريق المرح الذى يمتد بين نيس وباريس وقد حفت بجانبيه احمال عربات وقطارات من الزهر . وطفى الزهر على منزله حتى طمره فعلا . ويرى خمسون الف طفل ، هم ازهارحيةجميلة. يغنون ويرقصون تمجيداً للجد هيجو. ويمشى فى طرقات باريس نصف مليون من العمال يرددون النشيد المفضل عند هيجو (المارسييز) .

وأعقبت ذروة نصرة هوة أساه . فما كاد يحتفل بعيده الثمانين حتى ماتت أعز صاحباته (جوليت) « انك ان مت فانى مقيم على حبك » كذلك كتب اليها قبيل النهاية « ولو اننى مت لأقمت على حبك برغم ذلك .. هل مت .. اذن ينبغى أن أموت .. » وبموت جوليت انتهت معيشة هيجو على الأرض ، واخذ يتوق الى حياة وراءها أعظم منها ، ولم يكن يخامره أدنى شك فى عظمة تلك الحياة .

« فلو انى موشك على سحق نملة ، فرأيتها قد ضمت كفيها البائستين فى ضراعة لترفقت بها . فلمـــــاذا لا يرحمنى الله اذن . انى لأتوسل اليه أن يهب النعيم المقيم لك .. ولى .. وللجميع .. » .

« ونم يكن هيجو وحيدا مع أنه فقد حبيبته ، وحليلته، وابناءه جميعا عدا واحده هى اديل التى كانت مصابة بجنون لا برء منه فقد كان يعيش بين احفاده كان أشبه بشجرة البلوط يحيط بها نطاق من شجيرات صلبة . فاذا أوشك على تلقى دعوته الى السماء قال لهم « يا ملائكتي الظرفاء انى راحل عنكم ، فأنا اشعر أن الله ينادينى فأنا ذاهب لأرى ثانية صغارى الآخرين الذين فى السماء انكم لن ترونى ثانية ، لكن سأكون معكم دائما ، قريبا اليكم ، اقرب اليكم مما أنا الآن ، وسأباركم كما أفعل الآن » .

ومات فى ٢ مايو وهو يوم سانت جوليا ، يوم يحمل اسم جوليت ، وكان اصدقاؤه يتوقعون أن يدفن فى حفل رسمى غير انهم لم يدهشوا حين سمعوا رجاءه الأخير .

(اريد أن امنح ٥٠,٠٠٠ فرنك للفقراء .. وأريد أن احمل الى القبر فى عربة الفقراء) وكتب فى نهاية هذا الرجاء عبـــارة بسيطة تعبر عن ايمانه (انى أرفض الصلوات التى تؤدى فى كل الكنائس فانى أؤمن بالله) .

فهرس

	صفحة
المؤلفـــان	٧
مقـــــدمة	٩
مقدمة المؤلفين	١٣
جيو فانى بوكاشيو	١٥
فرانسوا رابليه	٣٢
ميجل دى سرفانت	٤٨
جوناثان سويفت	٧٥
لورنس سترن	٩٢
سير والترسكوت	١٠٧
أونورى دى بلزاك	١٢٠
اسكندر ديماس « الأب »	١٤١
فيكتور مارى هيجو	١٥٥

العدد القادم من كتاب الهلال :

الجزء الثانى من

اعلام الفن القصصى

يصدر ٥ يناير سنة ١٩٧٩

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص ٠ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

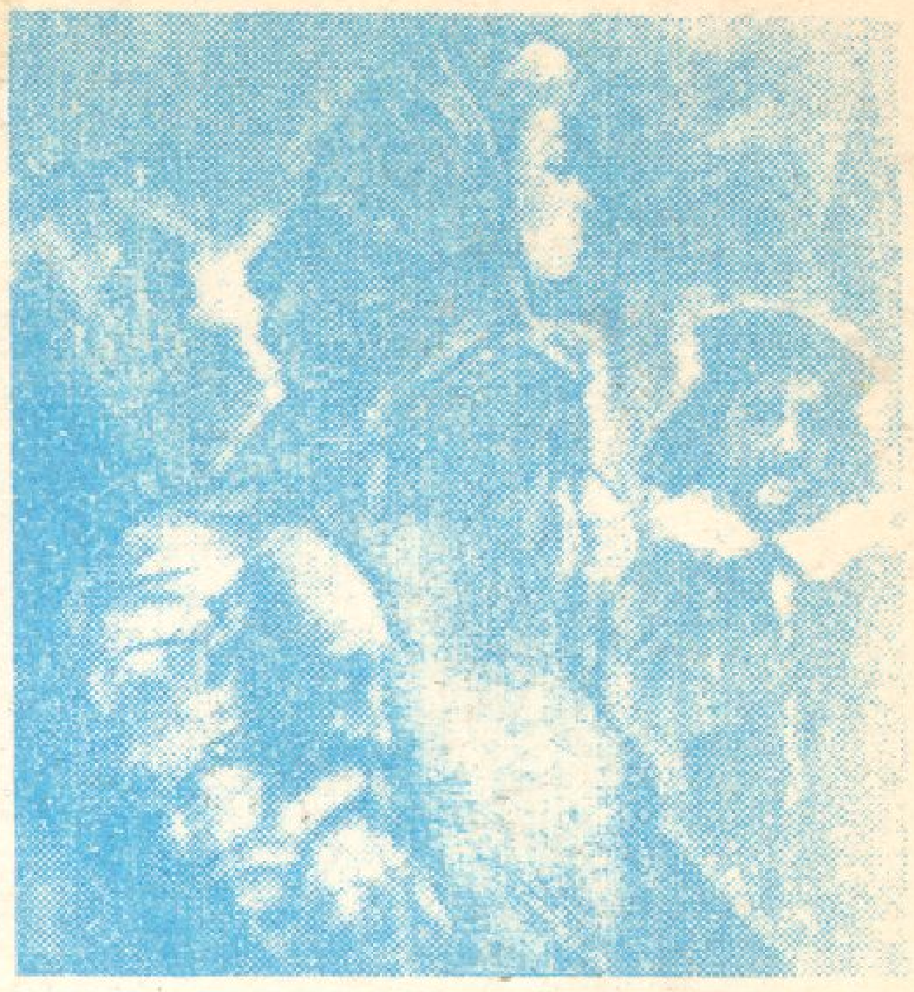

هــذا الكتاب

هذا الكتاب يشتمل على سير مجموعة كبيرة من أبرز كتاب القصة فى العالم ، منذ ميلاد فن القصة الحديثة على يد بوكاسيو فى القرن الرابع عشر حتى توماس هاردى فى القرن العشرين . وهؤلاء الكتاب ينتمون الى مختلف الجنسيات . فمنهم الايطالى والأسبانى والانجليزى والفرنسى والروسى والأمريكى والايرلندى . وقد صيغت سيرة كل كاتب فى قالب قصة قصيرة قائمة بذاتها ، تحمل فى تضاعيفها لمحات من خير ما كتب صاحب السيرة . ويعتمد الكتاب فى تصوير شخصيات الأعـلام على الحقائق المادية وتناولها تناولا فنيا قصصيا بحيث تخرج الصورة شائقة نابضة بالحياة . كما روعى تقييمهم على ضوء ما ســاد بلادهم على أيامهم من تقاليد ، وطرائق فى العيش ، وأساليب فى تناول الحياة .

ولم يقتصر الكتاب على تصوير أعلام القصة من الخارج ، كمـــا يتراءون من خلال حقائق حياتهم ، بل عمـــد كذلك الى تصوير [illegible] الداخل كما يتراءون من خـــلال أفكار عقولهم . ومن هـــذه [illegible] المزدوجة ، وجدنا أن كل قصاص عظيم ، هو نفسه بطل لقصة [illegible]

.3
41
1
78
Bibliotheca Alexandrina
0210639

١٥ ق